استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن 21

كما تقدمها
دعوة الإحياء الإسلامي

جمال البنا

المحتويات

القســم الأول
استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن 21

القسم الثانـي
دعوة الإحياء الإسلامي

إلـــى ...

- الذين يطلبون الحقيقة ولا يخشون المجابهة ويرفضون التجاهل والاستخذاء.
- والذين يؤمنون أن الإسلام رسالة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وجعل الإنسان خليفة في الأرض.
- والذين يؤرقهم التساؤل:

لماذا ....

كيف ....

وإلى متى ....

نقول لكم: لا تيأســوا

لقد رسمنا الطريق،

وبدأنا المســــــيرة

وندعوكم للمشاركة

القسم الأول
استراتيجية الدعوة الإسلامية
في القرن الواحد والعشرين

- 1 -
مدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

يتمزق الكاتب المسلم أسى عندما يفكر فيما آلت إليه شئون المسلمين، والدرك الأسفل الذي انتهت إليه أوضاعهم وبلادهم، وعندما سلم الملك التعس أبو عبد الله مفاتيح غرناطة سنة 1492 إلى فرديناند، وإيزابيلا، فإن 800 سنة من الوجود الإسلامي انتهى كأن لم يغن بالأمس، وتداعت الدول الأوروبية دولة دولة على

استعمار بلاد المسلمين حتى البرتغال القميئة التي بدأت المسيرة المشئومة، واستولت روسيا على تلك المناطق التي كانت جنة الحديث النبوي ومهد شيوخه وعلمائه بخارى وسمرقند وما وراء النهر. فقتلت الرجال وهدمت المساجد وأرغمت النساء على الزواج من روس. وقيل إن طبول الجيش الروسي كانت حتى القرن السابع عشر تصنع من جلود المسلمين!! وتسابقت فرنسا، وإنجلترا في احتلال الدولة الإسلامية دولة دولة في أفريقيا وآسيا.

ولم يأت القرن التاسع عشر حتى لم يعد هناك دولة إسلامية مستقلة باستثناء – صحراء العرب – وأصبحت السيادة والعزة، والكرامة للأوروبيين.

وعندما قضى على الاستعمار بالرحيل، فإنه لم " يأخذ عصاه ويرحل " فقد ترك عصاه فيما غرسه من فتن، وما رسمه من حدود، وما اصطنعه من فئات، وكان قبل هذا قد نهب الموارد وحاز الثروات فلما استقلت هذه البلاد لم تهنأ باستقلالها إذ اشتعلت فيها نيران الفرقة والفتن التي غرسها الاستعمار وتدهورت أمورها إلى الدرجة التي أصبح بعض أهلها يتمنى عودة الاستعمار.

وحورب الإسلام في بلاده نفسها بأيدي طغمة عسكرية حاكمة رباها الاستعمار، وربط مصالحها به ففي تركيا – دار الخلافة – حورب الحزب الإسلامي الذي نال أغلبية المقاعد في المجلس النيابي حربًا شرسة وانتهكت القوانين ومبادئ الحرية والديمقراطية لتحرمه من السلطة وحدث الشيء نفسه في الجزائر فما إن حصلت الجبهة الإسلامية على الأغلبية في الانتخابات حتى قبض على زعمائها وزج بهم في السجون. فكيف يمكن للدعوة الإسلامية أن تنتصر إذا كانت تحارب في الداخل بأيدي فريق من شعبها.. وفي الخارج بالاستكبار العالمي والعربدة التي تمارسها القوى الكبرى.

وخلال القرون الخمسة التي تلت تسليم غرناطة 1492 وأوربا تتقدم في مجالات الفنون والعلوم، وفي الثلث الأول من القرن الثامن عشر بدأت أولى قفزاتها " النوعية " بتوصلها إلى القوة البخارية والآلات الحديدية التي أطلق عليها الثورة الصناعية فظهر القطار البخاري وظهرت السفن التي تمخر المحيطات ثم ظهرت السيارات التي تعمل بالوقود وبعد ذلك بخمسين عامًا اكتشفت الكهرباء وكانت تلك قفزة أخرى نوعية أيضًا فتحت آفاق الإضاءة والطاقة والاتصالات حتى انتهى أخيرًا إلى الذرة والحاسوب وثورة الاتصالات..

وازدان سجل الاكتشاف والاختراع والبحث بأسماء عشرات الألوف من العلماء في مجالات الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والرياضة إلخ.. وظفر أبرزهم بجوائز نوبل.. بينما لم يظهر من العالم الإسلامي بأسره إلا اسم واحد أو اثنان.. ولا تعرف مساهمة يعتد بها لعالم إسلامي بينما يعمل العدد القليل الذي أثبت نبوغًا من العلماء المسلمين في خدمة الدول الأوروبية أو الأمريكية ويزيدون تقدمها.

أليس عارًا – لا يعدله عار – أن يعيش المسلمون عالة على غيرهم، وأن لا يظهر منهم من يذكر اسمه وسط عشرات الألوف من الأسماء المضيئة النشطة، المبدعة، المستكشفة التي تطلق الآن على النجوم، وعلى أعضاء الجسم، وعلى قوانين العلم والرياضيات إلخ..

أليس عارًا أن تكون " أمة محمد " هي أكثر الأمم فقرًا وضعفًا ومرضًا وجهلاً واستخذاء.

هذا الوضع المهين الذي يثقل النفس همًا ويفعم القلب غمًا لا يهم في قليل أو كثير قادة " المؤسسة الدينية " في الأزهر بمصر، أو الحوزات بإيران، أو الجامعات بالسعودية، فهؤلاء السادة يعيشون بعقولهم وأفكارهم في عالم يعود إلى ألف عام خلت، ولا يحرك منهم ساكنًا عالم العصر بكل ما فيه من دوي وصخب، وهذا أمر

طبيعي لأنه إذا كان على أحد الشيوخ أن يدرس الفقه الحنبلي مثلاً، فلا يعنيه في شيء إلا ما قاله الإمام أحمد وأتباعه، وبقدر ما يتعمق في هذا بقدر ما يتـدعم مركـزه الأدبي والمادي ويتلقى الثناء والتقدير، وينال مرتبه، ويعيش عيشة راضية.. ولا يعنيه بعـد هـذا أن الإسلام كاد أن يشطب من على خريطة العصـر، وأن دولـة أصـبحت رمـوزًا للتـأخر والتبعية الذليلة، لأنهم لا يرون في الإسلام إلا التراث، وهم حماته، وهم في أفضل حال يظفرون من العامة بالاحترام وينالون من النظم الحاكمة التأييد والدعم وحسبهم فخرًا أن يقال عن مصر إنا بلد الأزهر!!

أما الحقيقة المؤلمة فهي أن الصورة التراثيـة الطقوسـية الـتي عـرض بهـا الفقهـاء الإسلام – ولم تخلص منها حتى أشد الدعوات الإسلامية تحررًا – كانت من أكبر دواعي انصـراف مجموعـات عديـد عن الإسـلام. لأنهم لم يـروا فيمـا يقدمونـه إلا الحض على الشعائر والطقوس والتحذير من سماع الموسيقى والغناء ودخول السينما، وأن صـوت المرأة عـورة وحلـق اللحيـة من الكبـائر ولم يتحـدثوا عن حريـة الفكـر الـتي جـاء بهـا الإسلام وسبق بها الديمقراطية ولا العدل الذي أكده القرآن مـرارًا وتكـرارًا وسـبق بـه الاشتراكية، ولم يسمعوا كلمة عن الإنسان وكرامته ولا عن مشاكل المجتمع ولا معاناة الجماهير وحذروهم من الثورة باعتبارهـا فتنـة ومعصـية، ولـو كـانت على أوضـاع تبقى الناس في إسار الجهل والذل والفاقة والمرض، ولم يوجهوهم وجهـة المسـتقبل وإنمـا أبقوهم في ظل الماضي وتجاهلوا الطيبة التي من حق الناس أن يعيشوها بما فيها من رضا واستقرار وإشباع.. فأنفض النـاس عنهم وعن الـدعوة الإسـلامية، ولاذوا بـدعوات أخرى أو أنطووا على أنفسهم.

وفي العالم الخـارجي، كـادت هـذه الصـورة الطقوسـية أن تمحـو الإسـلام من على خريطة العصر.

من هنا، فلا ينتظر أن يكون للمؤسسة الدينيـة، ولا للفقهـاء التقليـديين ولا للـدعوات الإسلامية على الساحة دور في وضع الاستراتيجية الجديدة للـدعوة الإسـلامية، بـل من المحقق أنهم سيكونون أعداء ألداء لها وقد يصمون أصحابها بالخروج عن الملة!

وهذا ما يقال أيضًا على الجماعات التي تـدعي " الناصـرية " أو " الاشـتراكية " أو " القومية العربية " فهؤلاء جميعًا يربطون أنفسهم وأفكارهم بدعوات نشأت عن ظروف معينة، ونجحت في الوصـول إلى الحكم بوسـائلها الخاصـة دون أن يكـون لهـا أسـاس موضوعي متكامل أو أن تتفق مع الإسلام.

إن واضعي الاستراتيجية الإسلامية يرفضون هذا ويتمسكون بأن تكون استراتيجيتهم فوق المجاملات والمصانعات أو الأخذ بنصف الحقيقة خشية المصالح والقوى والعداوات أو حرصًا على الاستكثار من الجماهير. فالحقيقة كاملة، ولا شيء غير الحقيقة. هي ما يجب أن تقوم عليه الاستراتيجية حتى ولو تكتلت القوى ضدها، وهو ما يجعل واضعيها يقفون في العصر الحديث – دون مبالغة – الموقف الذي قال عنده الرسول في بدر " إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد بعد اليوم ".

- 2 -
تحديات العصر تحاصر الإسلام

كل يوم يمر يزداد إحساس المسلم بوطأة تحـديات العصـر، ويحس بالخنـاق يضـيق عليه، ذلك أن اليوم في العصر الحديث يعني شيئًا أكثر بكثير مما كان يعنيه سابقًا فهـو بألف يوم من الأيام السابقة، وقد تكـون بعض أيامـه بـألف عـام، وفي كـل يـوم تظهـر اكتشافات، واختراعات وتظهر مستجدات، ويحـدث هـذا لا في دولـة واحـدة، ولكن في عشـرات الـدول. في الولايـات المتحـدة، في اليابـان، في ألمانيـا، في فرنسـا، في سويسرا، في إيطاليا، في الصين حتى نصـل إلى دولـة صـغيرة مثـل كوريـا، ففي كـل دولة من هذه الدول تظهر.. في صباح كل يوم.. اختراعات أو اكتشـافات جديـدة، وقـد يكون لبعضها آثار مدوية على الحياة اليومية للناس في الاقتصـاد، والزراعـة والصـناعة والصحة، والتعليم والخدمة الاجتماعية والاتصال إلخ..

وتتعاظم آثار هذا الإحساس لدى المواطن المسلم بمـا يلحظـه من تخلـف في بلـده ذاتها، وأنها ليست فحسب لا تستطيع التقدم، بل إنها تضطر للتقهقر إزاء تعقد الأوضاع وتفاقم الأزمات والعجز التام عن الإصلاح لعقم، بل لإجـرام، بعض النظم الحاكمـة في الدول الإسلامية وارتباطها برواسب سياسة داخلية، وعلاقات بالقوى الخارجيـة تجعلهـا عازفـة عن أي إصـلاح بـل وتـدفعها لحـرب المصـلحين واللجـوء إلى أسـاليب الـتزييف والادعـاء وكتمـان الحقـائق وإظهـار الأباطيـل والاسـتعانة بكـل وسـائل الإعلام وإثقـال المواطن بمشكلات الحياة اليومية حتى لا يجد وقتًا أو جهدًا أو مالاً للعمل العام.

يحدث هذا في الوقت الذي تنطلق في الغرب قوى العمل، والفكـر، والعلم والعمـل إلى الأمام قدمًا لا يقف في طريقها شيء، بل يجد المساندة والتأييد والدفع.

وليس المهم أن نعدد هذه الاختراعات وآثارها فهي معروفة وملموسـة، ولكن المهم أن نعـرف أن هـذه المسـتجدات كلهـا أصـبحت في مجموعهـا تمثـل تحـديين من أكـبر تحديات العصر، التحدي الأول وله طابع عملي ومادي هو " القوة " والتحدي الثاني وله طابع فكري ومعنوي هو " الحرية ".

وبـدأ التحـدي الأول مـع ظهـور الثـورة الصـناعية في منتصـف القـرن الثـامن عشـر بالتوصل إلى البخار كطاقة محركة، والحديـد كمـادة لصـنع الآلات وكـانت هـذه الثـورة فيصـلاً بين عهـدين في تـاريخ البشـرية فقبلهـا كـان النـاس في جميـع البلاد يزرعـون ويلبسون ويمارسون الحرف بصورة واحدة ظلت على ما هي عليـه منـذ آلاف السـنين وكانت تجعل الامتياز فيها للإبداع والمهارة الفردية، والقـوة والجلـد على العمـل، ولكن هذه الصفحة طويت عندما ظهرت الآلات الحديدية التي تحركها طاقة جبارة لا تكل ولا تمل هي البخار يمكنها أن تـدبر الآلات وتسـير السـفن والقطـارات وتحقـق من الإنتـاج أضعاف ما كان يحققه الإنتاج الحرفي اليدوي.

ولم يعد للرقيق والعبيد حاجة بعد أن قامت الآلات بما كانوا يقومون به. وأخذ الإنتاج الآلي طريقه نحو كل مسالك الحياة، ولم يقتصر على الصناعة، ولا على وسائل النقـل والمواصلات، ولكن امتد إلى القـوة العسـكرية، فظهـرت المـدافع والبنـادق وبـدأ خـط الافتراق يظهر ويتعمق ما بين الشرق النائم عن هذا التطور والـذي لا يـزال يعيش في عالم الإنتاج اليدوي الحرفي، وبين العالم الأوروبي الذي يتقدم في صور الإنتاج، يوضـح ذلك مقارنة ما حدث في مصر سنة 1200 بما حدث لها سنة 1800، ففي سنة 1200 قدم الصليبيون وعلى رأسهم ملك فرنسا – لويس التاسع – وهاجموا دميـاط على حين غفلة واستولوا عليهـا ولكن المماليـك سـرعان مـا أعـادوا صـفوفهم وأوقعـوا الهزيمـة بالصليبيين وقتلوا فرسانهم وأسروا الملك لـويس التاسـع وسـجنوه في دار بن لقمـان حتى افتدته زوجته بفدية باهظة، وبعد ستة قرون جـاء أحفـاد هـؤلاء الفرنسـيين وعلى

رأسهم نابليون بونابرت وظن المماليك أن التاريخ سيعيد نفسه، وسيهزمونهم كما هزموا لويس التاسع منذ بضعة قرون، ولكن نابليون جاء بمدافع وبنادق واستراتيجية عسكرية جديدة أثمرتها التطورات في المجتمع الأوروبي، فلم يستطع المماليك أن يحاربوا بسيوفهم المدافع والبنادق وانهزموا.

وكانت دلالة ذلك لا تخفى ولم تكن القضية قضية معركة ولكنها قضية عصر جديد، يعرض أنماطًا جديدة، وتهزم فيه البندقية السيف وقضي الأمر. وانتصر الحديد الذي يرمز لصلابة وبأس العهد الجديد.

ومن هذه اللحظة وقد هيمن الغرب على الشرق بقوة السلاح واحتل واستعمر كل أراضيه بجيوشه ومدافعه وأساطيله، وتضاعف أثر هذه الحقيقة في الفترة المعاصرة التي تعجز فيها دول العالم الثالث عن أن تصل إلى مستويات المهارة والتقنية التي تمكنها من صنع حاملات الطائرات والصواريخ والغواصات.. وأصبح العالم الإسلامي في قبضة الجبروت الغربي الذي سيطر عليه بقوة السلاح، وقد رأينا آثار ذلك فيما يفرضه الغرب من عقوبات على بعض الدول الإسلامية ووسائل تطبيق هذه العقوبات من حصار بحري وبري وجوي بحيث لا يمكن لأي دولة متاخمة أو صديقة أن تخرقه.

على أن آثار اكتشاف القوى المحركة والوسائل الجديدة للإنتاج لم تكن محصورة في المجال الحربي والعسكري، لقد كانت أصلاً قوة صناعية تدور حول إبداع وسائل جديدة للإنتاج، تتميز تمييزًا كاسحًا على الوسائل القديمة للإنتاج، وكان المصنع الحديث هو قاعدة القوة الاقتصادية التي حققت لأوربا فيوضًا من الثروات وفي الوقت نفسه قضت على اقتصاديات الدول الأخرى لتدميرها وسائل الإنتاج الحرفية، واستئثارها بالإنتاج الآلي والأسواق.

وفي الفترة الأولى لثورة الصناعة كان التطبيق العملي للاختراع يتطلب عددًا كبيرًا من السنوات، ستين أو خمسين أو ثلاثين سنة، ولكن التقدم العلمي والفني من كل الدول الأوروبية وتراكم الخبرات استحث حركة تطبيق الاختراع بحيث تقاصرت المدة بين ظهور الاكتشاف، وتطبيق هذا الاكتشاف وتسويقه تجاريًا خلال بضع سنوات.

ومن أحداث هذه الاختراعات أجهزة الاتصال بالأقمار الصناعية التي أصبحت تجعل من الممكن للأفريقي في أدغال أفريقيا، والأمريكي في أحراش البرازيل أن يستمع إلى آخر الأخبار بل وأن يرى على شاشة التليفزيون آخر الأفلام والمسرحيات التي تعرضها مسارح لندن والاستعراضات التي تقدمها مسارح " باريس " وبرداوي مما يؤثر تأثيرًا بالغًا على الشخصية والمفاهيم.

وأدى توصل أوربا إلى هذه الاكتشافات والاختراعات لأن تكتسب الصدارة في الاقتصاد الدولي، وأن ترفع إلى مستويات عالية معيشة مواطنيها بحيث أصبح متوسط دخل الفرد فيها يعادل خمسين أو سبعين ضعفًا متوسط دخل الفرد في العالم الثالث، لأن هذه الاكتشافات مكنت مجتمعاتها من الاستفادة بكل شيء في الطبيعة، الهواء، الماء، أمواج البحر، وكل ما كان يهمل من الفوائض أو النفايات إلخ.. فضلاً عن أن المنتجات الآلية أعلى بمراحل من المنتجات الزراعية ووصلت هذه الآلية إلى أعلى مستوياتها في الكومبيوتر ووسائل الاتصال وبهذا استحوذ الغرب على ثروات العالم الثالث بفضل العلم بعد أن كان قد استحوذ على ثرواته بحكم الاستعمار.

فالتحدي الأول للعصر الحديث: القوة: سواء كانت عسكرية أو اقتصادية، وهو أكبر التحديات أثرًا وقد حدث نتيجة لتطبيق العلم على العمل ولاعتبار الأبحاث أكثر الأعمال استثمارية وربحية، فبقدر ما يتفق عليها بقدر ما يعوض هذا الاتفاق أضعافًا مضاعفة.

أما التحدي الثاني الأدبي والمعنوي فهو الحرية: وهو لا يقل تأثيرًا عن الأول لأنه يمس إحدى المقتضيات الضرورية واللازمة لتقدم المجتمعات والحفاظ على كرامة الإنسان..

وهناك عوامل عديدة أدت إلى بـروز الحريـة في المجتمـع الغـربي واعتبارهـا إحـدى القيم الرئيسية في حضارته، ولكن يمكن التركيز على ظهور المطبعـة في وقت مبكـر (قرابة سنة 1450) ولو في صورة بدائية للغاية، وقد تقدمت المطبعة خلال مائـة عـام وبدأ في إشاعة الثقافة بين الناس.

ومن المفارقات أن النهضة العلمية الفكرية، وكذلك فكرة تطبيق العلم على العمل، كانا من الأفكار التي قدمها الإسلام للغـرب وقـامت عليهـا حركـة الإصـلاح الـديني من ناحية والثورة الصـناعية من ناحيـة أخـرى، وكـان يمكن أن تنهض بالشـرق لـولا الحكم الاستبدادي الذي وأدها.

فقـد قـدم الإسـلام للمصـلحين المسـيحيين فكـرة اسـتبعاد الكنيسـة، ورفض وجـود وسـيط بين الإنسـان واللـه، والبسـاطة في المسـاجد وأداء الشـعائر، وعـدم عصـمة " رجال الدين " حتى فكرة القضاء والقدر التي كـانت أحـد محـاور كـالفن، ولـوثر وبقيـة دعاة الإصلاح الديني الذي حرر المجتمـع الأوروبي من سـيطرة البابويـة وكفـل انتصـار المصلحين وأحرار الفكر الذي كانت الثورة الفرنسية سنة 1789 إيـذانًا بـه. كمـا قـدم جابر بن حيـان والخـوارزمي وابن الهيثم وابن سـينا، والبـيروني، والزهـراوي الوسـائل التجريبيـة في العلـوم وتطـبيق العلم على العمـل الـذي قـامت على أساسـه الثـورة الصناعية.

وأخذت مسيرة الحرية تتقدم يدفعها التطور العام ودعوات المصلحين فاكتسبت حق المعارضة السياسية وتكوين الأحزاب وحرية الصحافة والنشر ثم لحقت المجموعات المحرومة من الحقوق كالعمال الذين كونوا نقابات حمتهم من الاستغلال الرأسمالي وكالنساء اللاتي كون هيئات كسبت لهن حق المشاركة في العمل السياسي بما في ذلك حق الترشيح، وكانت المرأة قد زحفت على مجال العمل مدفوعة بالرأسماليين الذين زجوا بها في المصانع لمنافسة العمال الأشداء، وأوجد انتشار التعليم وجعله إجباريًا في المراحل الأولى جمهورًا واعيًا، قارئًا، وعرضت شاشات التليفزيون على شعوب العالم الثالث صورة لحرية المجتمعات الأوروبية وثمراتها اليانعة، ومظاهرها في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وتأصـلت الحريـة بمعـنى " حريـة الآخـر " في صـميم المجتمـع الأوروبي – بالنسـبة للأوروبيين – إلى الدرجة التي تسامح المجتمع الأوربي في ظهـور عديـد من المناشـط كانت تعد شذوذًا وانحرافًا، وإشباعًا لشهوات وتحقيقًا لما تهوى الأنفس دون أن تتحرك الحكومات لكبحها تاركة إياها للتطور ومعتبرة إياها ثمنًا لا بد من دفعه للحريـة وأنـه إذا جاز التدخل هنا، فيمكن لهذا التدخل أن يتطرق إلى مجالات أخرى بحيث تتهدد الحرية.

هذان التحديان.. القوة العسكرية الباطشة التي تخضع كل دول العالم وتبقيها تحت سيطرتها، والحرية الطليقة بكل مظاهرها وتجلياتها.. هما أبرز التحديات التي أصبحت تحاصر عالم الإسلام ولا يجد سبيلاً للتحرر منها، دع عنك الانتصار عليها. فلا يمكن بالوسائل التقليدي أن يتوصل إلى ما توصلت إليه أمريكا من قوة باطشة.. كما تتملكه الحيرة أمام الحرية ما بين الإعجاب بها، والخوف منها، لأنها من المحتمل أن تؤدي – رغم مزاياها – إلى أن تهز ثوابته وتزلزل قواعده، والأديان بصفة عامة دعوات يغلب عليها الحفاظ والثبات.

وقد يبدو أن التحدي الأول تحدي القوة – يضع الدعوات الإسلامية أمام باب مســدود أو جـدار مصـمت، وأن التحـدي الثـاني يشـيع فيهـا الحـيرة والقلـق والتذبـذب. ولكن الاستراتيجية الرشيدة للدعوة الإسلامية ترى نفسها قديرة على التصدي لهذين..

وإذا كنا قد تحدثنا عن هذين التحديين بنوع من الإسهاب الذي يكشف عما فيهما من صلابة وقوة فـذلك لضـحالة الإحسـاس بهمـا في نفـوس معظم الـدعاة، وأن مـوقفهم يتفـاوت مـا بين تجاهلهمـا أو تقليـل أثرهمـا والإسـهاب في عـرض نقـائص الحضـارة

الأوروبية وهي نقائص موجود بالفعل، ولكن الحضارة الأوروبية التي توفر لها العلم والحرية تصمد لهذه النقائص لأن الحرية تكشفها، والعلم يعالجها، وهذا ما لم يكن متوفرًا للحضارات السابقة التي أدت نقائصها دون توفر العلم والحرية – إلى انهيارها.

أما كيف يمكن أن نجابه هذين التحديين فهذا ما تكشف عنه استراتيجية الدعوة في الصفحات التالية.

- 3 -
المحاور الرئيسية في الاستراتيجية

أولاً: الاستراتيجية المطلوبـة يجب أن تكـون اسـتراتيجية تثوير[1] وبناء جديد:

1- قامت الدعوات الإسلامية المعاصرة بفكرة الدفاع عن الإسلام وإبراز محاسنه إلخ.. والإسلام محفوظ بحفظ الله، والدفاع عنه مهمة المفكرين والكتاب. أما الدعوات الإسلامية فليست مهمتها الدفاع عن الإسلام ولكن إنهاض المسلمين وهي المهمة التي لم تتصدر لها، وكانت النتيجة حدوث فراغ وانعدام وجود الدعوة الإسلام الحياتية، الشعبية.

وتركيز الدعوات الإسلامية جهودها للدفاع عن الإسلام، وليس العمل لإنهاض المسلمين كان أمرًا طبيعيًا منها لأن إنهاض المسلمين يتطلب أن تأخذ الدعوة الإسلامية طبيعة عملية ثورية حيوية، ولم يكن لدى الدعوات الإسلامية لا الشجاعة ولا التأصيل النظري لثورة التغيير الإسلامية..

2- النظم الحاكمة القائمة مترهلة ومتضاربة فضلاً عن فسادها، وقيام معظمها على وسائل ديكتاتورية مفروضة على الشعوب وتربطها بالقوى الدولية تحالفات أريد بها الحماية المتبادلة كما أن المؤسسة الدينية اصطنعت بحكم وضعها وللأسباب التي أشرنا إليها في المدخل موقف الحفاظ على الوضع القائم ومقاومة كل جهود التغيير.

3- لا يملك إرادة وقوة التغيير على أساس نظري متكامل إلا النظرية الماركسية والدعوة الإسلامية، وقد تهاوت الأولى لفقدانها الحرية بينما عجزت الثانية عن الفعالية لتجمدها وتقوقعها وفقدانها حرية التفكير والتعامل مع المستجدات.

4- بحكم التاريخ الذي جعل الدين جذر الحضارة في هذه المنطقة، حتى قبل الإسلام، ولأن اللغة العربية – لغة الفكر – هي لغة القرآن الذي حماها من الإذابة في اللهجات الإقليمية، ولأن القيم التي غرسها الإسلام هي التي كونت وجدان شعوب المنطقة. فلا بد لاستراتيجية النهضة أن تكون إسلامية وأي استراتيجية أخرى ستكون غريبة، مستوردة، ولن تلمس نبض الشعب ولن تتجاوب معها الجماهير العريضة.

5- وهناك عامل آخر يفرض " الإسلامية " على الاستراتيجية هو أن غول العولمة وقواه الكاسحة من مال أو سلاح يمكن أن يدمر شخصية الأمة تمامًا ويذيبها ليعيد صياغتها كما يشاء..

الإسلام وحده هو الذي يقوى على صد هذه الغائلة- وليس هناك بديل فالاشتراكية، والقومية العربية، والوطنية كلها تهاوت كبيوت من ورق، ولا يمكن أن نجد كتابًا كالقرآن، ولا أسوة كالرسول ولا كوكبة من القادة كالصحابة فضلاً عن ذكريات وجهود وعلماء وشهداء على مدار ألف وأربعمائة عام، وليس مطلوبًا ولا هو مستطاع أن نمحو الذاكرة التاريخية للأمة، أو أن نبدأ من فراغ أو أن نستجدي النظم، فهذا كله عبث. الإسلام وحده هو الذي يمكن أن يقف أمام خطر إذابة العولمة.

---

[1] (?) المقصود باللفظة المعنى الذي جاء به الأثر النبوي " أثيروا " القرآن أو من أراد العلم " فليثور " القرآن.

6- وقضية التنمية التي هي التحدي الأول أمام الدول الإسلامية لا يمكن أن تتحقق إلا باعتبارها معركة حضارية إيمانية يعبأ لها الشعب باعتبارها الصورة الحقيقية للجهاد. والإيمان الإسلامي هو القوة الرافعة التي ترفعها من أرض المكاتب والقواعد إلى سماوات الإنجاز، والطاقة المجانية التي تكفل لها دوام العمل، ولن يتوفر هذا إذا قامت بها الحكومات والخبراء، والفنيون أو اعتمدت على الإعانات والاستثمارات والقروض وسياسات البنك الدولي فهذه كلها تربطها بالعولمة وتخضعها لمصالح الدول الكبرى والمؤسسات العملاقة.

ثانيًا: إذا أريد تطبيق الاستراتيجية المنشودة فلا بد من تقـديم فهم جديـد للإسـلام يختلف تمامًا عن الفهم التقليدي السلفي المتقوقع الذي ظهر عقمه، ويقوم على تثوير القرآن بمعنى إعادته كما كان أداة لخلق مجتمع جديد وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

1- يشترط في هذا الفهم أن يكون إسلاميًا أصيلاً لا يقوم على التلفيق أو التطويع ويبرأ من الأثر الاعتذاري أو التبريري وأن تتوفر له في الوقت نفسه الفعالية إزاء التطورات والمستجدات وتحديات العصر كموضوعات المرأة والفنون والعدل والنظم السياسية والاقتصادية وحرية الفكر وحقوق الإنسان وكرامته إلخ..

2- لا يمكن التوصل إلى هذا الفكر وبلورته إذا وضعنا كمرجع لها الفكر التراثي كائنًا ما كان، والمصدر الوحيد الذي يسعفنا هو القرآن الكريم ومن ثم فإن هذا الفكر يجب أن يكون له منبع وحيد هو القرآن ومصب أخير هو الإنسان ووسيلة هي تثوير المجتمع.

ولا يعني هذا استبعاد السنة، لأن مرجعية الرسول منصوص عليها في القرآن. فالأخذ بها أخذ بالقرآن، وإذا كان الإسلام قد كتب بحروف القرآن فإن السنة هي النقط على هذه الحروف ولا يمكن فهم الكلمات دون النقط، ولكن النقط أيضًا محكومة بالحروف نفسها التي لا يمكن بغيرها أن يكون للنقط معنى. فالسنة مبينة وليست منشئة أو مغيرة إلا على سبيل الاستثناء.

والرسول في هذه الاستراتيجية هو بتعبير القرآن " أسوة " المؤمنين جميعًا، وعلى نقيض ما يرى الفقهاء التقليديون، فإن ما وضعه الرسول لسياسة الحكم قد يكون أهم وأبقى مما وضعه من تفاصيل الشعائر.

3- لا بد أن يكون هذا الفهم شاملاً لكل جوانب المعرفة الإسلامية من فقه وحديث وتفسير وأن ينبع عن نظرية واحدة بحيث لا يوجد تنافر أو تضارب في أجزائها، وأن يتسم بطابع الانتهاض والتفاؤل والقدر على التغيير والوصول إلى الأهداف التي تحقق الحياة الكريمة للجماهير العريضة للشعب وأن ينهي الفصام التقليدي ما بين الإسلام والإنسان. الدين والدنيا، وتحريم الفنون والآداب والعزوف عن جعل الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا هدفًا من أهداف الدعوة الإسلامية. إن الحياة في سبيل الله لا تتنافى مع " الموت في سبيل الله " بل لعلها أن تكون الطريق إليه.

- ومن القسمات الرئيسية في هذا الفهم إنقاذ الفكر الإسلامي من المنطق " الصوري الطقوسي " إلى عالم الحياة وإبراز القيم الحضارية من العلم والعدل والعمل والحرية التي هي في الحقيقة لب الأديان، وبوجه خاص الإسلام.
- ومن القسمات الرئيسية في هذا الفكر الإيمان بحرية الفكر والاعتقاد إلى آخر مدى " فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر ".
- ومن القسمات الرئيسية في هذا الفكر أيضًا تحرير المرأة المسلمة من القيود التي فرضها الفقهاء وعزلوها بها عن الحياة.

إن العلم، والعمل والمشاركة السياسية والاجتماعية والاقتصادية هي حقوق للمرأة كفلها القرآن عندما قال:
﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ إلى آخر الآية، ولا يمكن لأمة الإسلام أن تنهض ونصفها مشلول، ومن الخطأ الفاحش أن تختزل قضية المرأة في " الحجاب ".

4- لا بد أن تتضمن الدعوة الإسلامية الجديدة كجزء لا يتجزأ منها صورة للإمكانيات الهائلة التي يمكن أن تتغير بها صورة الحياة الواقعة، بل تقلب الأوضاع الدولية رأسًا على عقب، **ويكون ذلك بأن يوضع كهدف استراتيجي التوصل إلى طريقة استخدام الطاقة الشمسية استخدامًا " تجاريًا " ولن يعجز العلماء المسلمون عن التوصل إلى ذلك،** وسيعيد هذا مراكز القوة في أوروبا إلى البحر الأبيض المتوسط (كما كانت قبل الثورة الصناعية) وستغرس الحياة الكريمة والنور في القارة التي أطلقوا عليها القارة المظلمة، وستصبح الصحراء الكبرى – التي تماثل مساحتها الولايات المتحدة، وتزيد مزارع ومصانع، ومدن تكفل الحياة الكريمة لكل أبنائها.

وإذا حق لأوروبا أن تفخر بالعدد الكبير من العلماء والمكتشفين والمخترعين، والفنانين والفلاسفة فإن الاستراتيجية الإسلامية تبرز دور " الأنبياء " الذين أنعم الله على الشرق بهم، وكيف كانوا القادة الذين هدوا الشعوب والجماهير إلى الحياة الرضية الخيرة، وإلى ما قامت به الأديان من تعميق الضمير، وإرساء القيم وتنظيم المجتمع وهذا كله يعدل، ويفوق ما أنجبته أوروبا من نوابغ.

وفي حقيقة الحال فإن المؤمنين بهذه الاستراتيجية لا يمكن أن يتطرق إليهم شعور بالدونية، أو أن يصابوا بانبهار لأنهم يؤمنون أن الحضارة التي يدعون إليها أفضل من الحضارة الأوربية في جوانب رئيسية فالإنجاز الأعظم للحضارة الأوربية هو في " الأداء " وطريقة الصنع والإنتاج والتعامل وسرى هذا في عروق هذه الحضارة بحيث غلبت عليها " الشكلانية " إلى درجة أصبحت تعتبر كل من لا يأكل بالشوكة والسكين ويلم بأتيكيت المائدة همجيًا متخلفًا حتى إن كان لديه الصدق، والإخلاص والعدالة والعقل والذكاء إلخ.. فاستراتيجية الدعوة الإسلامية أبعد عن أن تؤخذ بالحضارة الأوروبية، إنها تعمل – فيما تعمل – لإصلاح نقص الحضارة الأوروبية المميت، إلا وهو ابتعادها عن عالم الروح والقيم.

وفي الوقت نفسه فإن عناية الاستراتيجية بتحقيق الطاقة كأداة لتطوير المجتمع سيخلص المجتمع من التخلف المادي حتى وإن ظل تقدمه أقل مما وصل إليه الغرب، وهو شيء لا تأسى عليه الاستراتيجية – بل إنها ترى أن كبح جماح الاستهلاك وتقييد تعدد الاحتياجات وإشباع كل ما تهوى الأنفس هو أمر مطلوب – وأن عدم وجوده في المجتمع الأوروبي سيكون في النهاية من أكبر مشكلات هذا المجتمع فالتخمة يمكن أن تكون قاضية كالمجاعة.

5- سيكون من الضروري لهذا الفهم أن يجابه بقوة، وصراحة بعض معالم ومقومات الفكر الإسلامي التقليدي، مثل التفاسير وجنايتها على روح القرآن، والسنة وضرورة ضبطها بمعايير القرآن وإحلال فقه جديد محل الفقه التقليدي والسفلي، وبصفة عامة تجاوز التراث **واعتبار أن جذر الفكر الإسلامي الحقيقي والأصيل هو القرآن الكريم وهو محور هذه الاستراتيجية ولا يجوز أن يفتات عليه أو يحل محله وكيل هو التراث.**

6- لا بد من صياغة مفردات هذا الفم في كتابات سائغة، بأسلوب مفهوم بعيد عن التعقيد الأكاديمي والتفيهق التقليدي تفند كل ما يوجه إليها من اتهامات أو ما قد يحيط بها من شبهات، وتنتهي إلى النتائج المنشودة.

على أن لا يمس هذا درجة الإحكام والأستاذية التي يجب أن تتوفر في مراجع لنظرية جديدة أو استراتيجية شاملة.

***

عندما يتم التوصل إلى هذا الفهم الجديد المنشود والذي يمثل الأساس النظري للاستراتيجية يمكن الانتقال إلى طريقة تحويل هذا الفكر إلى عمل، والنظرية إلى سياسة policy مع **التنبيه إلى مخاطر الانتقال من الفكر إلى العمل قبل استكمال الجانب النظري واستيعاب الجماهير له.**

ثالثًا: طرق التغيير وهي:

1- التغيير الثوري – بانقلاب عسكري كالذي حدث في سوريا والعراق وكانقلاب 23 يوليو العسكري في مصر.

2- التغيير التدريجي – بالحكم والموعظة الحسنة بحيث يمكن التوصل إلى تغيير الرأي العام واكتساب رأي عام جديد ومثاله في العصر الحديث الجمعية الفابية Fabian Society التي أسسها في إنجلترا في أواخر القرن التاسع عشر لفيف محدود جدًا (خمسة أو ستة) من ذوي الاتجاه الاشتراكي واستبعدوا لوثاته وعملوا لإذاعة هذا الفكر بالنشر أساسًا ونجحوا بحيث استطاع حزب العمال سنة 1945 أن يحقق ثورة اجتماعية دون حاجة إلى الشرعية الدموية المزعومة للثورات.

كما يمكن أيضًا دراسة سياسات ووسائل التبشير بالمسيحية والشخصيات البارزة في الفكر المسيحي مثل القديس بول واجنازيودي ليولا وفرانسيس الأزيسي وسان فنسان دي بول وقيادات الكنيسة الأرثوذكية في مصر التي قاومت الاضطهاد البيزنطي، بالاختصار القيادات التي قامت بالتبشير بالمسيحية داخل أوروبا ونشرتها خارجها وكانت وسائلها التبشير والنشر والمدارس. وقد كانت هي التي جعلت معظم زعماء وحكام أفريقيا مسيحيين لأنها أدخلتهم أطفالاً في مدارسها ونصَّرتهم وكانوا قبلاً مسلمين أوثنيين.

ولا يجوز المضاءلة من أثر هذه الوسيلة في المدى الطويل، وبعيدًا عن الأضواء. إن نصف النخبة رجالاً ونساء في المجتمعات العربية تقريبًا تعلموا في مدارس الراهبات أوالجزويت الفرير لأن أهليهم أرادوا أن يرسلوهم في بعثات وكان لا بد من إحكام اللغات الأوروبية. وفي حالة الإناث، فإن هذا اعتبر علامة من علامات التقدم. وكان للجامعة الأمريكية في بيروت، ثم في القاهرة ولكلية فيكتوريا في الإسكندرية أثر بالغ على تكوين الشبيبة التي تلي المناصب وتضع القرار.

وفي تاريخنا الإسلامي فإن الطرق الصوفية والتجار نشروا الإسلام في الأطراف القاصية من العالم في أندونيسيا والملايو والصين والفيلبين وأدغال أفريقيا، وقد أثمرت دعوتهم في الوقت الذي اندثر الإسلام من بلاد فتحت بحد السيف وظل المسلمون فيها ثمانية قرون كالأندلس.

وهناك هيئة إسلامية معاصرة تقدم لنا مثالاً في التعريف بالإسلام هي هيئة التبليغ التي تحدثت الصحف والإذاعة البريطانية من مؤتمرها العام في الأيام الأخيرة من يناير سنة 2000 وقدر عدد من حضره بمليونين وقيل إنه أكبر تجمع إسلامي بعد الحج وفكرة التبليغ رغم وعورة وصعوبة القيام بها (لأنها تتطلب عادة السفر إلى أقطار بعيدة للتبليغ بالإسلام) من أنجح الدعوات لأنها بسيطة وسائغة **والنقص الرئيسي أن ما يقومون به يدور حول التعريف بالشعائر من صلاة أو صيام والدعوة الإسلامية عندما تنفصل عن روحها تصبح مجرد طقوس ولو بلغ دعاتها روح الإسلام لأسهمت إلى حد كبير في النهضة بالمسلمين وكل من تبلغهم هذه الدعوة..**

كما يجب دراسة قيادات الفكر الاشتراكي ماركس وإنجلز وروزا لوكسمبرج ولينين وتروتسكي والقيادات التي نشرت الفكر الاشتراكي في مختلف دول العالم والمشكلات التي عانوها والمآزق التي تعرضوا إلخ..

3- العمل السياسي – بتكوين حزب والوصول للحكم، ويمكن لهذا الحــزب أن يتقلد الحكم بطريقة ديمقراطية (حـزب العمـال في بريطانيا سـنة 1945) أو بطريقة انقلابية (حزب النازي والحزب الفاشي في ألمانيا وإيطاليا).

الوسيلة الثانية (ب) أي التغيير التدريجي للرأي العام واكتساب رأي عام جديد هي الأمثل لأنها:

- تبرأ من مخاطر الديكتاتورية العسكرية، والانتهازية الحزبية.
- تكفل الإيمان الحقيق الذي لا يتأتى إلا بتعميق الفكر.
- تتفق مع الإسلام الذي يعني بإصلاح الفرد – قبل وأهم – من إصلاح الأوضاع وتتبع تكتيكه " المرحلة المكية – مرحلة العقيدة قبل المدينة ومرحلة الشريعة".
- مع أنها تتطلب وقتًا طويلاً، وعادة ما لا تكون لها " الجاذبية الثورية " فإنها آمنة، ولا يمكن أن تتسبب في مثل نكسة 67 التي أخرت العرب مائة سنة أو في تراجيديا " أم المعارك " وموبقات الشرعية الثورية المزعومة كما تكفل البعد عن هستيريا الجماعات الإسلامية التي تتصور أنه يمكن بالعنف إقامة الدولة الإسلامية.

ولكن لما كان الأسلوب الإصلاحي التدريجي الذي ستنتهجه الاستراتيجية سيؤدي بروح ثورية نتيجة تثوير القرآن فإن هذا سيوفر له قدرًا كبيرًا من الحماسة والثقة بسلامة الفكرة وقيامها على أعظم المرتكزات – القرآن – وفي الوقت نفسه معايشتها للحاضر واستشرافها للمستقبل، وأن ما تطرحه من حلول هي حلول سليمة ليست فحسب لمشكلة المجتمع العربي الإسلامي، بل أيضًا لحل أزمة المجتمع الأوروبي/ الأمريكي.

إنها ثورة الكلمة التي تريد أن تعيد مرة أخرى ما قالت عائشة " فتحت المدينة بالقرآن " دون حاجة إلى قتال أو دماء.

إن هذا لا يقل أهمية في الثورية عن مضمون الدعوة نفسها وقد نجحت دعوة الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية الشاردة في تحقيق قدر من الجو الحماسي ولكن لما كانت مرتكزاتها ماضوية، سلفيه، عاجزة عن مجابهة مشكلات العصر، دع عنك المستقبل، فلم يثمر إيمانها عملاً. **لقد كانوا على استعداد " للموت في سبيل الله " وليس للحياة في سبيل الله.**

إن المناخ الانتهاضي الروحي المطلوب هو ما يثمره تثوير القرآن – هذه العملية التي تبرأ من لوثات الثورات الأوروبية وتخلص في الوقت نفسه من مثبطات الإصلاح التدريجي.

وفي الوقت نفسه فمن المهم إبراز أفضلية الأسلوب الدعائي/ الجماهيري الذي أشرنا إليه آنفًا على الأسلوب الثوري/ السلطوي " وما يحيط بالسلطة من مغريات ومفاسد في الأفراد، وعلى التطبيق. وإن الحكم بوازع السلطان لم يثمر إلا الديكتاتورية البغيضة، ولابد أولاً من إيمان القاعدة العريضة للجماهير.

إذا أمكن بلورة النظرية خلال بضعة أعوام وهو أمر ممكن بفضل الكتابات المتاحة بالفعل " أنظر الفقرة الخاصة بالمراجع " والتي تكون الأساس النظري للاستراتيجية المنشودة وما يستجد من كتابات أخرى مكملة فيمكن تكوين هيئة مماثلة للجمعية الفابية تكون مهمتها نشر وإذاعة هذا الفكر واستخدام كل الوسائل الحديثة للنشر والإذاعة والتعريف كالأشرطة والتليفزيون والإنترنت إلخ.. بحيث يمكن خلال عشرين سنة تهيئة رأي عام يعمل بقوة وإيمان للمشروع الحضاري الإسلامي. ويمكن عندئذ للهيئة أن تؤسس من داخلها حزبًا ينفصل عنها بمجرد تكوينه ليقوم بالتطبيق خلال

الحكم بوسائل ديمقراطية. وتبقى الهيئة لتراقب حزبها حتى لا ينحرف وتزوده بالعناصر المؤمنة ولتآزره عند الحاجة ولكنها تظل في جميع الحالات هيئة دعوة.

ولما كانت دعوة الإحياء الإسلامي (انظر الباب الثاني من هذا الكتاب) قد بدأت بالفعل في بلورة النظرية، فإن الجزء الأعظم من " طرح الاستراتيجية " يكون قد تم ولو في مرحلة أولية، ويبقى بعد ذلك العمل والممارسة التي ستصقل التنظير وستكشف عن نواحي الكمال أو القصور، ما يجب أن يضاف. وما يحسن أن يحذف. حساب الأولويات إلخ.. وهو ما لا يتضح تمامًا إلا بالعمل الميداني ووسط الجماهير الذي ستمارسه دعوة الأحياء الإسلامي وما يكشف عنه هذا العمل من أولويات أو تعديلات.

- 4 -
قضية المراجع

1- لا بد من وضع الاستراتيجية المنشودة من توفر مراجع تستند إليها، وتعصمه من الانزلاق، وتعرفها على الأبعاد العديدة للقضية. وأهم من هذا كله تكسبها الوقت الثمين، لأن هذه المراجع تمثل أعمار تبلورت في صياغتها، ومعارف موسوعية ومواهب تميز بها بعض مؤلفيها، فإذا لم تكن موجودة، فلا بد من العكوف لوضعها سنوات طوال ثم لا تكون ضرورة بالمستوى المطلوب.

2- من المسلم به أن المكتبة الإسلامية هي أوسع المكتبات العربية، وأن وراءها تراثًا ضخمًا من المراجع التي اعتبرت الأسس التي قامت عليها العلوم الإسلامية الأساسية – أعني الفقه – والتفسير والحديث.

وليس المجال مجال نقاش ومناظرة حول أهميتها بالنسبة لاستراتيجية جديدة، فواضح بالطبع أن كتب التراث هي أساس الوضع القديم، وأنها بالتالي وبحكم الطبيعة لا تصلح، أو على أحسن الأحوال، لا تكفي لاستراتيجية جديدة.

ورأينا الخاص أنه لم يعد لدينا وقت أو جهد لاستخلاص الاستراتيجية الجديدة من هذا الكم المتعالي من المراجع – فضلاً عن تحفظاتنا الأخرى العديدة على نوعية هذا التراث وصلاحيته. **والنقطة الهامة هي أن الأساس الذي وضع عليه الأسلاف ثقافتهم، وهو الكتاب والسنة لدينا، ونحن اليوم أقدر على فهمه منهم ومن ثم فليس هناك داع أصولي في صميم النظرية يدعونا للالتزام بالتراث، ونحن لا نهمل أو نتنكر للتراث أو الجذور، ولكننا نتمسك بأصل وجذر هذه الأصول ألا وهو القرآن الكريم والثابت الصحيح من سياسات وتوجيهات الرسول، وهذا حسبنا.**

3- المراجع والكتب التي وضعها أئمة النهضة الإسلامية الحديثة من جمال الأفغاني حتى الآن تتضمن بلا جدال أفكارًا تسهم في الاستراتيجية الجديدة وبالذات من كتابات جمال الأفغاني ومحمد عبده، ولكن الدعوة الإسلامية الحديثة، لأسباب لا يتسع لها المجال – انتكست شيئًا ما.. بحيث عادت إلى الإطار السلفي – سواء في هذا دعوة الإخوان المسلمين أو دعوات الجماعات الإسلامية على اختلافها (الجهاد – القطبيون إلخ..) وأصبحت داعية للإطار السلفي..

وبقدر ما تتعمق كتابات منظري هذه الجماعات بقدر ما تصدق هذه الحقيقة كما تظهر بوجه خاص في كتابات منظري هذه الجماعات بقدر ما تصدق هذه الحقيقة كما تظهر بوجه خاص في كتابات السيد أبو الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب.

وقد يكون أقرب الكتابات إلى فكرة الاستراتيجية كتاب إقبال " تجديد الفكر الإسلامي " (مع بعض تحفظات) وكتابات النمساوي المسلم أسد " ليوبولد زيف " وهي في الصميم ولعلها الأفضل، وكذلك محاولات الجزائري مالك بن نبي. كما أن للدكتور حسن الترابي والشيخ راشد الغنوسي والدكتور فتحي عثمان والدكتور محمد شحرور مساهمات طيبة.

واستطاع الشيخ يوسف القرضاوي باجتهاداته ومرونته أن يوسع في إطار الفقه السلفي إلى آخر مدى يحتمله هذا الإطار، ولما كان فقه دعوة الإحياء هو خارج هذا الإطار، فقد يمكن أن يكون ما انتهى إليه هو نقطة البداية أو خط التماس مع دعوة الإحياء وإن كان هناك اختلاف في المنطلق الأصولي يلقى بظله على الدعوتين.

ووضع كثير من كبار الكتاب كتبًا إسلامية، وإن لم تكن في موضوع الدعوة بالذات، ولكنها بالطبع مفيدة مثل إسلاميات العقاد وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وخالد محمد خالد، والشيخ محمد الغزالي.

ويجب كذلك الإطلاع على كتب الشـيخ محمد أبو زهـرة والشـيخ خلاف وغـيرهم من أساتذة الفقه لأنهم قاموا بدور مشكور في تبسيط الفقه وتقديمه بصورة سائغة.

أما كتب المستشرقين فليست مفيدة إلا للتعريف على أفكار أصحابها، والإفادة من طريقتهم في التنهيج، ومن المؤكد أن معظمها يخالف الفكرة الإسلامية ويستهدف إثارة الشكوك فيها، ولكن هناك مجموعة محددة متجاوبة مثل إدوارد سعيد، وأناشميل الألماني وبالطبع فإن كتب جارودي وهوفمان إلخ.. تعرض وجهة نظر جديدة وتمثل إضافة من الضروري التعرف عليها.

تظل الحقيقة أن هذه المراجع كلها لم تستهدف وضع استراتيجية، لأن الحارس القوي للفهم التقليدي والإطار السلفي حال دون وضع أسس استراتيجية تجابه تحديات العصر، وهذا الحارس هو الفقه وما وضعه الأسلاف من أصول أو تفريعات، وما استندوا عليه من تكييف للسنة وتفسير القرآن، وقد أخذ الجميع أصول الفقه الأربعة ومقاصد الشريعة الخمسة كمسلمات لا نقاش فيها، ولا تعقيب عليها[2]. كما لم يجادل أحد في مرجعية ومصداقية تفسيرات المفسرين للقرآن أو ما أقامه المحدثون من فنون الرواية والدراية والجرح والتعديل. وقد كان هذا التأصيل للفقه والحديث والتفسير كافيًا في وقته، ولكنه غير كاف الآن، بل إنه أصبح عقبة كئود – أمام التجديد المنشود، وأمام هذه العقبة وقف الجميع. دون أن يتوصلوا – أو حتى يفكروا – في فقه جديد يحل هذه المعضلة.

وهذا الأمل الطموح والإنجاز المرموق هو ما خص الله تعالى به دعوة الإحياء الإسلامي فتصدت له، وأصدرت " نحو فقه جديد " في ثلاثة أجزاء عالجت فيه أهم القضايا الفقهية وأرست أسسًا جديدة للشريعة تختلف شيئًا ما عن الأصول التقليدية التي أجمعوا عليها.

وقد تصور البعض أن دعوة الإحياء الإسلامي ليست مؤهلة لمثل هذا العمل الفريد لأنها غير متخصصة في الفقه. وفاتهم أن هذا نفسه هو الشرط الرئيسي الذي كان لازمًا لفقه جديد. فما يمكن للمتخصصين التفكير في فقه جديد، ولكن يمكن أن يحكموا دقائق وتفاصيل الفقه الذي تخصصوا فيه، ولا يعني تخصصهم إلا هذا، وهو ما يحول بينهم وبين الخروج إلى آفاق جديدة. بل هو يزيد ارتباطهم بفقههم القديم.

وما ينطبق على دعوة الإحياء الإسلامي هنا هو ما قيل على الإمام حسن البنا رحمه الله " كان الأستاذ البنا خطيبًا وكان في الإخوان من هو أخطب منه، وكان فقيهًا وكان في الإخوان من هو أفقه منه، وكان مفسرًا وكان في الإخوان من هو أعلم بالتفسير منه، ولكن لم يوجد في الإخوان أو غير الإخوان من يجمع أطراف هذه كلها وغيرها بالقدر المطلوب حتى يمكن أن يبدع " الإخوان المسلمين "..

وهم يريدون أن يقسموا رحمة ربك وأن يخصوا بها أنفسهم أو أصحاب الجاه والمال والمشيخة. أو المؤسسة التي ادعت لنفسها احتكار التفسير والتأويل، التحريم والتحليل.

ويأبي الله " والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون "..

***

المهم: أن صدور " نحو فقه جديد " لما كان في حقيقته تجديدًا جذريًا في فهم القرآن الكريم والسنة النبوية، وهما " الأصلان العظيمان " للإسلام، فإنه أفسح الطريق أمام الاستراتيجية المنشودة لتضع منطلقاتها. وفي الوقت نفسه، فإن هذا المرجع بالإضافة إلى المراجع العديدة التي سترد عند الحديث عن دعوة الإحياء الإسلامي حلت مشكلة المراجع.

---

[2] (?) انظر الجزء الثالث من نحو فقه جديد – جمال البنا – الذي يعرض وجهة نظر مختلفة.

القسم الثانـي
دعوة الإحياء الإسلامي

إذا كنت قد أعجبت بالاستراتيجية التي عرضناها آنفًا، فلعلك مشوق لتتعرف على الدعوة التي وضعت الاستراتيجية وترفع لواءها: دعوة الإحياء الإسلامي.

- 1 -
عن دعوة الإحياء الإسلامي بصفة عامة

ما هي دعوة الإحياء الإسلامي:

ليست دعوة الإحياء الإسلامي هيئة، أو تنظيمًا أو جمعية لها كيان إداري ولائحة ونظام أساسي إلخ.. كما هو الشأن في الهيئات والأحزاب والجمعيات.

إنها ببساطة دعوة، أو حركة، أو تيار فكري وصل إلى درجة البلورة والتنظير التي تجعل له كينونة خاصة متميزة تبرئه من السطحية أو التلفيق أو الانتقائية أو الاتباعية.

إنها نهاية عمر وليست بداية فكر، وهي نهاية المطاف وليست بداية المسيرة وهي ثمرة لثقافة موسوعية متعددة الأبعاد وليست نتيجة لتخصص فني أو دراسة أكاديمية في فرع معين من المعرفة الإسلامية، أو حتى فيها كلها، وتعود بذرتها إلى خمسين عامًا مضت عندما أفرد داعيتها الأستاذ جمال البنا في كتابه " ديمقراطية جديدة " (1946) بابا بعنوان " فهم جديد للدين " تضمن نواة فكرتها المحورية **" لا تؤمنوا بالإيمان، ولكن آمنوا بالإنسان " التي أخذت صيغتها الأخيرة " إن الإسلام أراد الإنسان ولكن الفقهاء أرادوا الإسلام "** فالفكرة الرئيسية في هذه الدعوة هي إعادة الإسلام لما كان عليه عندما نزل منذ أربعة عشر قرنًا ثورة لتحرير الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وإرادة تغيير مجتمع يعبد ما كان عليه الآباء والأجداد وإشاعة للقيم النبيلة وتكريم الإنسان.

وقد كانت هذه الفكرة هي مدار معالجة الأستاذ جمال البنا طوال خمسين عامًا وعنها صدرت كتاباته العديدة، ومع هذا فإنه لم يسمح لنفسه بإعلان دعوة الإحياء الإسلام إلا بعد أن أصدر الجزء الثالث من " نحو فقه جديد" وأصبح على باب الثمانين من العمر ووجد أن من واجبه أن يبلور الفكر المنشور في ثلاثين كتابًا، وينسق بينها، وينظمها في سلك دعوة واحدة، يسلمها لجيل جديد حتى لا تموت بموت صاحبها[3].

ولما كانت دعوة الإحياء الإسلامي تيارًا فكريًا ونظرية في فهم الإسلام. فإنها تصبح ملكًا لكل من يؤمن بها، فالأفكار لا تكون موضوعًا لاحتكار وما إن ينشرها صاحبها الأول حتى تصبح ملكًا للجميع. ومع أن حرصنا قدر الطاقة على الكمال.. فإن هذا لا يمنع من ظهور من يقدم لهذه الدعوة إضافة تثريها أو يكشف مأخذًا فيها.

ودعوة الإحيـاء تحـذر من أن تتحـول إلى مؤسسة يكـون لها كما يحـدث لكل المؤسسات مصـلحة خاصة بها – حـتى على حسـاب فكرتها نفسـها، وتأمل أن تظل دعوة حرة أو على أسوأ الأحوال مؤسسة مفتوحة.

لماذا دعوة الإحياء الإسلامي؟

قد يتساءل البعض عن سبب قيام هذه الدعوة، والساحة تحفل بالدعوات الإسلامية.

والرد ببساطة أن الدعوات الإسلامية قد ضلت الطريق.

فكما قلنا في "استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن الواحد والعشرين" إن الدعوات الإسلامية نصبت نفسها للدفاع عن الإسلام وإظهار مزاياه. والدفاع عن الإسلام بالدرجة الأولى هو مهمة الأكاديميين والكتاب، والإسلام بعد محفوظ بحفظ الله، ولا يعني الدفاع المجرد عن الإسلام شيئًا، وكان يجب أن تعنى الدعوات الإسلامية بالغاية التي جاء الإسلام لها فتحقق ما أراده الإسلام. فضلاً عن أن هذه طبيعة الدعوة الجماهيرية..

---

[3] (?) لعل مما يستحق الذكر أن الأستاذ جمال البنا في كتابه "ما بعد الإخوان المسلمين" عرض دعوة الإحياء عليهم ليجددوا بها شباب هيئتهم ولعله عندئذ ما كان يفكر في إعلان دعوته ولكن الإخوان وقفوا موقفًا سلبيًا.

وأدى اقتصار الدعوات الإسلامية على الدفاع النظري عن الإسلام وتخليها عما أراده الإسلام بالفعل لحدوث فراغ، وكان لا بد أن يُملأ هذا الفراغ.

على أن الدعوات الإسلامية التي نصبت نفسها للدفاع عن الإسلام لم تحسن القيام بهذه المهمة لأنها عرضت الإسلام السلفي، ولأنها جعلت من نفسها أداة لإذاعة أفكار بعض الفقهاء أو المذاهب مما لا يمثل إضافة إلى الفكر الإسلامي، وقد عنيت بعض هذه الدعوات بطبع كتب التراث، وبيعها بأثمان زهيدة أو على أجزاء ونشرها بين طلبة الجامعة إلخ.. وهذا في حقيقة الحال لا يخدم الإسلام بل يقدم صورة عقيمة عن الإسلام ويؤخر بدلاً من أن يقدم فهم الإسلام. وهذا الفهم المغلوط هو السبب في ظهور دعوات تقوم على التعصب أو تمارس العنف أو تقتصر على الطقوس والشعائر والوعظ والإرشاد.. أو تؤمن " بالحاكمية الإلهية " التي ضللت فريقًا من المحدثين، كما ضللت الخوارج من قبل وأدت إلى تضخم "التدين الأخروي" بين معظم فئات المجتمع، خاصة شباب الجماعات والمهنيين ويتبلور هذا التدين في الشعائر وبوجه خاص في الصلاة. فكل جزئية في الصلاة بدءًا من الوضوء والتيمم حتى التسليم في نهاية الصلاة هي محل عناية وتدقيق يعاد فيها إلى المراجع أو يسأل فيه الفقهاء، وقل مثل ذلك عن جزئيات الصيام والحج وعذاب القبر والجنة والنار. وتنعكس هذه الحالة الفكرية النفسية على سلوك وتصرفات أصحابها وطريقة عملهم وتعاملهم. يقابل هذه الجرعة الزائدة من **" التدين الأخروي"** إهمال **"للتدين الدنيوي"** أي الأخلاق والقيم التي يدعو إليها الإسلام لتستقيم الحياة من صدق، أو إنفاق، أو حرية أو سماحة أو عدل أو إعمال للعقل أو بذل للجهد. لأن التدين الأخروي لم يبق شيئًا، أو لم يبق إلا القليل للتدين الدنيوي، وهذه هي بالدرجة الأولى – جريرة الدعوات الإسلامية التي شاعت في الثمانينات وإن كانت قد نشأت في السبعينات.

حقًا إن بعض الدعوات الإسلامية، كالإخوان المسلمين مثلاً حاولت أن تجمع ما بين الدنيا والدين وأن تجعل من الإسلام منهج حياة، ولكن الوقت الأعظم لمنشئها النابغ قد أمضى في التنظيم أكثر مما أمضى في التنظير وكانت النتيجة أن الإخوان احتفظت بكيانها رغم ما تعرضت له من صدمات تنوء بها الجبال، من عهد فاروق حتى الآن، ولكن الحصيلة في الجانب النظري كانت محدودة ولا تتناسب مع المدة التي سلختها والجمهور الذي جذبته. إذ لم تستطع مجاوزة الإطار السلفي، حتى وإن كانت وسعت في هذا الإطار وأعطته قدرًا كبيرًا من المرونة، ولكن التجديد الحقيقي يقع وراء هذا الإطار السلفي، وهو ما لم تستطع –
لا هي ولا غيرها من الدعوات الإسلامية – مجاوزته وخوض غماره واكتشاف غيابه.

وليس أدل على العجز الفكري للدعوات الإسلامية على الساحة من أنها لم تقدم تنظيرًا أو تحليلاً لتحديات العصر ولكيفية تعامل الإسلام فيها، لأنها جميعًا محكومة بالأطر السلفية التي ليس لديها ما تقدم حلاً لمشكلات العصر..

إن تجاوز الأطر السلفية، والعودة إلى القرآن واعتباره صيحة إنقاذ، ودعوة هداية وإرادة تغيير ورسالة لإشاعة القيم وإعمال العقل – **باختصار تثوير القرآن وليس تفسير القرآن** هي المهمة التي ادخرها الله تعالى لهذه الدعوة وهي وحدها القديرة على التنظير لها والتبشير بها. لأنها مؤصلة الفكر ومتحررة تمامًا من الروابط والصلات التي يمكن أن تقيدها أو المصالح أو الضغوط الأخرى وليس أدل على تميزها من أنها عالجت بقوة وصراحة التحديات التي يثيرها المجتمع. كل تحد في كتاب، وهي تتقدم إلى الجمهور وفي يمينها ثلاثون كتابًا تغطي مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.. فأي دعوة يمكن أن تبدأ حياتها بمثل هذا الرأسمال الضخم..

من هنا يتضح أن هناك مبررًا قويًا لظهور دعوة الإحياء الإسلامي. لأنها هي التي يمكن أن ترد على التساؤل الحائر "كيف الخلاص".

هل من الضروري أن تكون دعوة الإحياء "إسلامية "؟

بعض الناس ممن لا يمتون بوجه خاص إلى الفكر الإسلامي، أو ممن تغلب عليهم ثقافات غربية، أو من غير المسلمين يسأل هل من الضروري لدعوة الإحياء أن تأخذ الطابع الإسلامي؟ هل يمكن أن تكون " علمانية " تقوم على المصلحة، أو القومية، أو غير ذلك من المرتكزات..

والرد أنه إذا أريد لهذه الدعوة أن تكون جماهيرية، **شعبية، يتجاوب معها عامة الناس فلابد أن تكون إسلامية، أما إذا كانت دعوة نخب تعتمد على الفكر المجرد** أو تستلهم التجارب والدعوات الأوروبية، بصرف النظر عن المجتمع العربي.. فإن دعوتهم ستكون دعوة "صالونات".

ذلك أن الدين كان في المنطقة العربية منذ أقدم العصور نبع القيم والضمير وأساس التشريع والقانون وبتأثيره أقام المصريون القدماء معجزات الآثار في الجيزة والصعيد وعندما ظهرت المسيحية قامت مصر بدور مؤثر في تاريخها وظهر فيها في وقت واحد قطبا الفكر المسيحي اثناسيوس وآريوس وأبدعت فكرة الرهبنة التي كانت إلى حد كبير ملاذًا من عدوان المحتل البيزنطي، وأخيرًا عندما جاء الإسلام رحب به الأقباط لأنهم وجدوا فيه السماحة، ولأن الميلاد الحديث للكنيسة القبطية تم على يدي عمرو بن العاص عندما استنقذ البطريرك بنيامين من مهربه البعيد وأعطاه كل السلطات كرأس للكنيسة، وقلما نجد في تاريخ الأديان شيئًا كهذا. وقدم الإسلام الفرصة التاريخية للمدينة، ودمشق وبغداد لتكون عواصم للإمبراطورية الإسلامية، ولما سقطت بغداد قامت مصر بالإبقاء على راية الإسلام مرفوعة، ووقع عليها الدور التاريخي المجيد دور إيقاف هجمة التتار، وما لا يقل عن ذلك إيقاف الحملات الصليبية.

وما حدث في مصر يمكن أن يقال على الشام والعراق فهل كانت تطمع دمشق في أن تكون عاصمة إمبراطورية، وهي التي كانت على مدار التاريخ ما بين مصر والرومان وبيزنطة، لولا الخلافة الأموية.. وهل كان يمكن أن تظهر بغداد لولا أبو جعفر المنصور والخلافة العباسية، فهذه المناطق كلها تدين بوجودها الحديث للإسلام.

وأي دارس أمين لطبيعة المجتمع العربي لابد وأن يعترف بالأثر العميق للإسلام عليه وأنه تغلغل في أعماق المجتمع حتى خالط اللحم والعظم، ونحن لا نعلق هنا على دلالة تمسك جماهير الشعب بالصلاة باعتبارها شعيرة خاصة جدًا بالفرد، وقد لا يظهر مردودها بشكل مباشر، ولكن خذ الصيام مثلاً الذي يشمل أثره الفرد كما يشمل المجتمع.. فالمجتمع كله يتغير في رمضان، تبعًا لما يقتضيه الصيام بما في ذلك تغيير مواعيد الوجبات والأخذ "بالسحور" الذي يسبق الفجر، وما يفرضه رمضان على المجتمع من ابتعاد عن المجاهرة بالفواحش إلخ، ولا يقل عن ذلك أهمية الزكاة فإن نسبة كبيرة من الأغنياء يقدمون الزكاة إلى الفقراء من الجيرة أو الأهل أو المعارف مما حال دون زيادة تدهور الفئات الفقيرة وأوجد قدرًا من التراحم والتماسك الاجتماعي، كما قام نظام الوقف بدور الممول الأكبر للمدارس وللهيئات العلمية ولمختلف وجوه البر، وهذا كله إنما تحقق بفضل الإيمان الإسلامي وتطبيق ما أمر به الدين وما كان المجتمع القديم ليستطيع التماسك في ظل استبداد الحكام وجورهم، إلا بفضل وجود هذه النظم.

ولم تأخذ حركات التجديد في الشرق العربي طابع الثورة على الإسلام – كما أخذته في أوروبا ضد المسيحية أو الكنيسة – بل بدأت بأفراد يمتون إلى الأصل الإسلامي – مثل رفاعة رافع الطهطاوي، وعلي مبارك في مصر أيام عباس الأول (الذي خلف محمد علي) ثم جمال الأفغاني ومحمد عبده في عهد الخديوي إسماعيل وتوفيق بل إن أحمد لطفي السيد سافر إلى الأستانة ليلقى جمال الأفغاني ويتتلمذ عليه، وعندما ظهر جيل جديد يبحث عن أيديولوجيات أخرى كالماركسية أو الفرعونية والأخذ باللهجة العامية دون العربية الفصحى فإن هذا الجيل فشل تمامًا ولم يرزق أي شعبية.
فالتكتلات الماركسية ظلت غريبة على المجتمع المصري. واعترف محمد حسين هيكل

بفضله في فكرة الفرعونية آونة، والمثل الأوروبية مرة أخرى، وعاد إلى الأصل الإسلامي بل إننا نجد كاتبًا قبطيًا ويساريًا وداعية لاستخدام العامية كالدكتور لويس عوض وهو يفشل في ذلك ويقلع عنه حتى في"مذكرات طالب بعثة" التي بدأ بها تجربة الكتابة بالعامية إذ تتخللها عبارات قرآنية أو إسلامية. كما نجد الاستشهاد بآيات قرآنية أو بأقوال لعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد في خطاب الحزب الشيوعي السوري – الذي كان يعد من أقوى الأحزاب في العالم العربي. وقد كان شبلي شميل وهو طبيب لبناني استوطن مصر – ملحدًا وترجم أصل الأنواع لدارون. ولكنه دافع عن الإسلام وبرأه من أن يكون علة تخلف المسلمين.

وباستثناء قسم من سكان العواصم وبعض الفئات الأخرى فيمكن القول إن جمهور الشعب العربي في المدن والقرى لا ينقصه التدين، بل لعل نصيبه منه أكثر من المطلوب، وإن حالت المفاهيم الشائعة والمغلوطة لهذا التدين دون بروز قيم الحرية والعدالة والمساواة في المجتمع. على ما أشرنا إليه من غلبة التدين الأخروي على التدين الدنيوي.

وإذا كان التاريخ الحديث اصطنع أصولاً وقوى ومرتكزات غير الدين، فإن هذا حدث في أوروبا التي لم تكن يومًا أرضًا لأديان، ولم نسمع فيها بنبي أو رسول، وقد كان هوميروس ومجموعة الشعراء اليونانيين، والمسرحيين الكبار هم الذين صنعوا الديانة اليونانية، ووضعوا مبادئ الضمير والخلق والواجب، وتأثرت بهم الحضارة الرومانية وظل ذلك حتى العصر الحديث، وما يصدق على أوروبا لا يصدق على الشرق، فالأمم كالأفراد له قدرها ومصيرها المعين الذي لا يمكن تغييره أو الإفلات منه.. فلا يمكن أن تتجاهل تاريخنا ونستجدي تاريخًا آخر. إن هذا غير ممكن وغير مطلوب.

من ناحية أخرى فإن الزهد في أن يكون للدعوة طابعًا إسلاميًا يغلب أن يعود إلى الفكرة المغلوطة المأخوذة عن الدين التي يروج لها ويدعو إليها رجال المؤسسة الدينية من شيوخ وخطباء مساجد من الذين لا يعرفون عن إسلام إلا الطقوس العبادية والشعائر والمظاهر التي هي من الدين كالجسد من الروح، ولعله معذور في ذلك. ولكن الحقيقة هي أن الأديان أعظم وأنبل فكر أراد الله به هداية البشر وهو يمثل قيم الخير والحب والمساواة والعدل والحرية وهو الذي يغرس في النفوس مبدأ الإيثار والإحسان والرحمة.. وهو الذي يلهم الفنانين والكتاب روائعهم وهو الذي يلمس أسرار الروح وعوالم القلوب، وهو الذي يلزم الحكام والأغنياء العدل في السياسة والاقتصاد ويبقى على البيت والأسرة ويربطها برباط من المحبة والتذمم، وحتى بالنسبة للذين يضعفون أمام الإغراءات فإن الدين لا يرفضهم لأنه يعترف بالطبيعة البشرية وهو يدعوهم إلى الاستغفار **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** فكل ما يمكن أن تقدمه أفضل النظم السياسية والاجتماعية والآداب والفنون توجد في الدين. فالدين هو ذخر البشرية وهو هدية الله تعالى للبشر، وإذا كان برومثيوس قد قدم للبشرية النار.. فإن الأديان قدمت للبشرية النور.

وحتى بالنسبة للوسيلة، فالذين يضيقون بالإسلام لأنه رمز الحفاظ والتقليد إنما نظروا إلى الفقه السلفي وجهلوا الطبيعة الأولى للإسلام والدور الثوري الذي قام به بحيث حقق أعظم ثور شاملة في تاريخ العالم بأقل قدر من العنف والدماء، ولو ترك الإسلام دون مهاجمة لما اضطر إلى القتال، لأن ثوريته تكمن في المعاني والقيم والأثر النفسي العميق الذي يوجده القرآن في النفوس فهنا- يمكن أن تقوم ثورة دون دماء أو تفتح مدينة دون غزو كما "فتحت المدينة بالقرآن" كما قالت السيدة عائشة، وبهذا يمكن للثوريين أن يستظلوا بلواء الإحياء الإسلامي.. إلا إذا كانوا يريدون الدماء وليست الثورة.. أو يقرنون ضرورة ما بين الثورة والدماء..

ومن غير المستساغ أن ترفض بعض الأقليات أن يعايشوا الإسلام الذي يمنحهم ما يمنح المسلمين " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " وبينهم وبين الإسلام آصرة الدين التي هي أقرب إليهم من القوميات أو الاشتراكية أو المذاهب الأخرى خاصة إذا كان هذا الدين يعترف بأنبيائهم ويوقرهم..

ويظل بعد كل شيء الإسلام أبرز مقومات المجتمع العربي وقد يفوق أثره أثر العامل الاقتصادي الذي يعد عادة أقوى العوامل تأثيرًا في المجتمع. ولهذا فإن أي دعوة تتجاهله تقطع أقوى آصرة مع وجدان الشعب. وتصبح غريبة عنه وتخسر أعرق مرتكز يمكن أن ترتكز عليه.

- 2 -
ميثاق دعوة الإحياء الإسلامي(*)
"إيماننا"

- 1 -

نؤمن بالله. إنه محور الوجود ورمز الكمال والعقل والغائية. وما ينبثق عنها من قيم، وبدونه يصبح الوجود عبثًا، والكون تحت رحمة الصدفة الشرود، والإنسان حيوانًا متطورًا أو "سوبر حيوان".

والإيمان بالله الذي يكون قوة ملهمة هو ما يغرسه في النفس تصوير القرآن الكريم لله تعالى، أما ما يرد في كتب التوحيد فلا يغني شيئًا، بل قد يضر.

- 2 -

الأنبياء هم القادة الحقيقيون للبشرية، ويجب جعلهم المثل في القيادة، وإطراح أحكام الطاغوت من قادة جيوش أو أباطرة أو ملوك إلخ.. وما وضعوه من سياسات القهر التي لوثت فكرة الحكم والقيادة وأساءت إلى البشرية.

ونحن نؤمن أن الإسلام قد قدم الصورة المثلى لله والرسول. على أننا نفهم الصور التي قدمتها الأديان الأخرى، لأن الدين أصلاً واحد، ولكن الشرائع متعددة، ونحن نؤمن بالرسل جميعًا، وإن الله تعالى أراد التعدد والتنوع ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ وأن الفصل في هذا التعدد هو إلى الله تعالى يوم القيامة.

- 3 -

ونؤمن أن الدين هو المقوم الأعظم للمجتمع العربي، وأنه يمثل التاريخ والحضارة والضمير، وأن تجاهله يقطع التواصل مع الشعب، ولا ينفي هذه الحقيقة أن تكون الفلسفة والآداب والفنون قد حلت محل الدين في المجتمع الأوروبي فلكل مجتمع طبيعته الخاصة وقدره الذي لا يمكن التمرد عليه أو التنكر له، وفي الوقت نفسه – فإنه لا يحول دون تلاقح الأفكار وتحاور الحضارات، وتقارب الديانات لأن الحكمة ضالة المؤمن.

ونؤمن بكرامة الإنسان، وأن الله تعالى هو الذي أضفاها على بني آدم جميعًا، فلا تملك قوة أن تحرمهم منها، وهي تعم الجنس البشري من رجال ونساء، بيض وسود أغنياء وفقراء إلخ.. وقد رمز القرآن لهذه الكرامة بسجود الملائكة لآدم، وتسخير قوى الطبيعة له.

إن كرامة الإنسان يجب أن تكون في أصل كل النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويجب أن تحرم تحريمًا باتًا كل ما يهدر كرامة الإنسان، جسدًا ونفسًا.

ولما كان الإسلام قد جاوز – كمًا ونوعًا – الاتفاقيات الدولية عن حقوق الإنسان، فإن أقل ما يجب أن يتم هو التطبيق الفوري لهذه الاتفاقيات.

- 4 -

لما كان القرآن قد جعل مبرر سجود الملائكة لآدم هو تملكه المعرفة التي تميز الإنسان عن بقية الكائنات، والتي تنقذه من الخرافة، فيفترض أن تكون المعرفة هدفًا رئيسيًا للمسلمين وما يتبع هذا من استخدام العقل، وما يثمره من علم وحكمة. ويجب على كل نظام إسلامي أن يشيع الثقافة والمعرفة، ويفتح النوافذ عليها، ويهيئ كل السبل التي تيسير للجماهير معارف ومهارات العصر.

(*) وضع الأستاذ جمال البنا هذا الميثاق لمؤسسة "فوزية وجمال البنا للثقافة والإعلام الإسلامي" التي تكونت سنة 1996 ولم يزد الميثاق الحالي إلا فقرة واحدة هي الخاصة "بتثوير القرآن" في بند 9.

إننا لا نستطيع أن ندخل القرن الواحد والعشرين بأمية أبجدية.

- 5 -

نؤمن بحرية الفكر، وإنها أساس كل تقدم، وأنه لا يجوز أن يقف في سبيلها شيء، ويكون الرد على ما يخالف ثوابت العقيدة بالكلمة لا بالمصادرة أو الإرهاب أو التكفير وليس هناك تعارض بين حرية الفكر المطلقة والدين لأن الدين يقوم على إيمان، ولا إيمان بدون اقتناع وإرادة ولا إرادة أو اقتناع إلا في بيئة تسمح بالدراسة الحرة، والإرادة الطوعية والنظر الدقيق، وفي القرآن الكريم قرابة مائة آية تقرر حرية العقيدة بصفة مطلقة وأن مردها إلى الفرد نفسه مثل ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ ﴿ **فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** ﴾ ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ إلخ..

ولا توجد الحرية إلا بتقرير حرية إصدار الصحف والمطبوعات وتكوين الأحزاب والهيئات والنقابات وبقية مؤسسات المجتمع، وحرية هذه الهيئات في العمل لتطبيق أهدافها ما دام ذلك يتم بطرق سلمية.

ونحن نرفض تمامًا دعاوى التكفير والردة، ونكلها كلها إلى الله تعالى يفصل فيها يوم القيامة، كما قرر القرآن ذلك وطبقته ممارسات الرسول.

أما ما قد ينشأ من أخطار، فإن الحرية نفسها تفسح المجال لإصلاحه.

- 6 -

يجب أن يكون العدل أساس التعامل بين الحكام والمحكومين، الرؤساء والمرءوسين، الرأسماليين والعمال، الرجال والنساء إلخ.. لأن كل ما يمت إلى عالم العمل والعلاقات لا يمكن أن يستقر إلا على أساس العدل ولا يجوز إعطاء فئات.. سلطات تمكنها من أن تحيف على حقوق فئات أخرى. إن هذا نوع من الظلم يماثل الكفر، ويجب أن لا يسمح به.

- 7 -

إن التحدي العملي الذي يجابه الدول الإسلامية اليوم هو التخلف اقتصاديًا وعسكريًا وسياسيًا واجتماعيًا، ولا يمكن وقف هذا التخلف إلا بجعل " التنمية " معركة حضارية تتم تحت لواء الإسلام باعتبارها النمط المطلوب من " الجهاد " واستنفار كل أفراد الشعب للمشاركة فيها من وضع الخطة حتى متابعتها وتقييمها. ويجب أن تكون هذه التنمية إنسانية.. تبدأ من محطة العدالة الممكن تحقيقها لتصل إلى محطة الكفاية المطلوب تحقيقها، إن الإيمان وحده هو الذي يولد الطاقة المجانية اللازمة ويوظفها لدفع التنمية وتجاوز المعوقات دون حاجة للاستثمارات التي تفسح المجال للتبعية والسير في مسار وإسار الدول الكبرى.

وأي محاولة للتنمية تستسلم لادعاءات البنك الدولي أو تقلد النماذج الأوروبية والأمريكية لن تسفر إلا عن مزيد من التخلف والفاقة والتخبط.

وبالمثل فإن أي محاولة للتنمية يضعها خبراء أو حكومات دون أن يكون لها الأساس الإيماني والمشاركة الجماهيرية أو تستهدف مصلحة الأقلية على حساب الجماهير العريضة هي تنمية محكوم عليها بالفشل.

- 8 -

إن الصورة النمطية لشخصية المسلم التي تتسم عادة بالسلبية والماضوية والتركيز على الطقوس والشعائر ليست هي صورة المسلم أيام الرسول، ويعود هذا الاختلاف إلى أن قصر مدة الرسالة النبوية والخلافة الراشدة (50 سنة) لم تكن كافية لتعميق جذور الشخصية الإسلامية. ثم جاء الملك العضوض، وتدهور الخلافة وسد باب الاجتهاد لأكثر من ألف عام، وغلبة الجهالة والاستبداد إلخ.. وتمخض هذا كله عن الصورة

المعروفة اليوم والتي تتقبلها وتبقى عليها المؤسسات الدينية والنظم الحاكمة لأسباب تتعلق بالقصور.. أو الإبقاء على المصالح المكتسبة.

ونحن نرفض هذه الصورة، ونعمل لإحياء إسلامي.

- 9 -

لا يمكن تحقيق أي إحياء إسلامي إلا بالعودة رأسًا إلى القرآن الكريم – وضبط السُنة بضوابطه وعدم التقييد بما وضعه الإسلام من فنون واجتهادات تأثروا فيها بروح عصرهم وسيادة الجهالة واستبداد الحكام وصعوبات البحث والدرس، وانعكس هذا على تفاسير القرآن وأحكام الفقه وفنون الحديث وأقحم فيها مفاهيم دخيلة ومناقضة لروح الإسلام.

لقد كان الإسلام أصلاً دعوة لإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور – وإحلال "الكتاب والميزان" أي المعرفة والعدل محل الجهالة والظلم وإساغة قيم الخير، والعدل، والحرية، والعلم إلخ.. التي هي روح الإسلام بينما تكون الطقوس والشعائر هي جسم الإسلام والاقتصار عليها – دون القيم – هو احتفال بجسم لا روح فيه.

بالنسبة لدعوة الإحياء الإسلامي، فليس المهم الآن تفسير القرآن، ولكن تثوير القرآن.. وهو ما دعا إليه الرسول وطبقه الصحابة، فإنهم لم يعكفوا على تفسير القرآن. وإنما هبوا كإعصار ليقوموا بأكبر حركة تغيير في العالم القديم.

- 10 -

هناك حقيقة تصل إلى مستوى البداهة، وإن أخفتها الغشاوات الكثيفة. تلك هي أن على كل جيل أن يعيش عصره دون الإخلال بالقيم العظمى للإسلام. إن التطور الاجتماعي للأمم والشعوب هو كالنمو الجسدي للأفراد لا يمكن أن يقاوم – فضلاً عن أنه علامة صحة وتطبيق لعالمية الإسلام وموضوعيته وصلاحيته لكل زمان ومكان.

إن الإسلام لا يحتكر – وحده – الحكمة، ولكنه ينشدها أنّا وجدها، وهو يتقبل كل الخبرات – كما أنه يقدم خبراته "فأما الزبد فيذهب جفاء. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" من هنا فإن النزعة الماضوية الانعزالية واتخاذ نمط المجتمع الذي كان موجودًا من قبل باعتباره النمط الأمثل، والضيق بكل مستجدات العصر من فنون وآداب، والنظرة المتخلفة للمرأة وحبسها وراء الأسوار.. كل هذا يخالف جوهر الإسلام.. وعالميته، وصلاحيته لكل زمان ومكان. كما أنه يخالف ما أراده الله تعالى عندما قال ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾.

وليس هناك خوف من أن يذوب الإنسان المسلم في الحضارة العصرية، لأن خيطًا وثيقًا يربطه بالله والرسول يبقي له قدرًا من القيم يكبح جماحه ويحول دون انفلاته وذوبانه.

تعقيب:

ليس في هذا الميثاق ما يتطلب الشرح، لأن لغته سهلة وبراهينه ناطقة وواضحة، وما نريد أن نثبته هنا هو أننا في مفاهيم الميثاق العشرة استلهمنا أولاً القرآن ثم الصحيح الثابت من ممارسات وأقوال الرسول. صحيح أننا لم نتوصل إلى هذا إلا بفضل المفاهيم الأوروبية والثقافة الحضارية الحديثة التي فتحت آفاقًا كنا غافلين عنها وما كان يمكن أن نصل إليها لو ظللنا عاكفين على ثقافة التراث، وبذلك أعدنا استكشاف الإسلام ووجدنا أن كثيرًا من القيم التي تدعو إليها الحضارة الحديثة مثل حقوق وكرامة الإنسان. وحرية الفكر. وأهمية العلم والعمل في نهضة الشعوب والتعددية والانفتاح إلخ.. هي مما سبق إليه الإسلام ومما قرره القرآن صراحة وتكرارًا. فطريقة الميثاق في إثبات وجود الله تعالى ومنزلة الإيمان بالله التي تختلف تمامًا عما

جاء في كتب الكلام الإسلامية، وتقترب من طريقة الاستدلال الحديث هي في حقيقة الحال من صميم ما تضمنه القرآن الكريم. وإذا كانت كلمة حرية لم ترد بهذا التعبير في القرآن، فليس ما هو أدعى إلى الحرية من **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** **فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** وهذه الحرية المطلقة هي في أهم شيء بالنسبة لدين أي الإيمان والاعتقاد، ونحن لم نستورد الحرية من الثقافة الأوروبية – ولكن من القرآن وإن قدمت الثقافة الأوروبية الضوء الذي رأينا عليه الحرية في القرآن وكلمة "تثوير" ليست من القاموس السياسي الأوروبي والاشتراكي خاصة. فقد وردت على لسان الرسول نفسه وكل دورنا كان بعثها من جديد ورفع الغشاوات الكثيفة التي حالت دون ظهورها..

وهذا ما ينطبق على كل ما جاء في الميثاق عن كرامة الإنسان وقداسة العلم والمعرفة والانفتاح على الحضارات والتعارف ما بين الأمم والشعوب. فهذا كله منصوص عليه صراحة في القرآن الكريم.

- 3 -
فكر وفقه دعوة الإحياء الإسلامي

أشرنا ببعض الإجمال إلى تميز دعـوة الإحيـاء الإسـلامي على غيرهـا، وقد آن الأوان لبسط هذه الفكرة وإقامتها على قواعدها.

فالدعوات الإسلامية قد ترحل ميدان الإصلاح بفكر سلفي فلا تجدد شيئًا. بل تفرض القديم على الجديد وتتمسك بما جاء به الفقهاء؛ لأنهم لم يتصوروا أبدًا أن من الممكن الاستغناء عنهم، باختصار تريد أن تعيد الساعة إلى الوراء، وتأبى طبائع الأشياء ذلك.
ومن ثم فعملها كله مردود وليس
إلا صورة من التماحك مع العصر.. وقد تدخل لعلاج ناحية واحدة، وهذا ما لا يمكن تحقيقه لأن الناحية الواحدة مرتبطة ببقية النواحي ولا يمكن إصلاحها على حدة، وقد تدخل الساحة حاملة شعارًا أخاذًا مثل " الحاكمية الإلهية " دون أن تعني بدراسة المضامين العملية له والوسائل التي يمكن به تطبيقه وأثار ردود الفعل إلخ.. ولعل هذه الدعوات "الشعارية" أن تكون أخطر وأسوأ الدعوات. وقد قتل أصحابها في القديم – الخوارج – بأيديهم الرجل الذي كان الرمز الحقيقي للحاكمية - وهو علي بن أبي طالب – وأفسحوا المجال لمعاوية الذي جاء بالملك العضوض. وقد تعني بالتدين الأخروي على حساب التدين الدنيوي.

لقد ضلت هذه الدعوات.. وأضلت

إن دعوة الإحياء الإسلامي شيء آخر. إنها تعود بالدرجة الأولى إلى العقل، بينما تعود كل الدعوات الإسلامية الأخرى إلى النقل. وعندما أعملت العقل انتهى بها إلى إيمان بالله يختلف عما جاء به علم الكلام الإسلامي. كما يختلف عن الموقف الأوروبي السلبي الذي فضل أن يتجاهل أعظم قضية في الوجود – قضية وجود الله – لأن العامة يمكن أن تستسلم إلى معيار الحواس، البدائي، الذي لا يعبر إلا عن طفولة العقل الإنساني. فما دام الله غير محسوس لا يمكن أن تناله الحواس، فلا داعي للتفكير فيه، أما الفلاسفة الذين كان عليهم أن لا يستسلموا لهذا الفهم السقيم، فإنهم فعلاً تواصلوا إلى فكرة وجود الله، ولكنها كانت فكرة غائمة أثرت عليها الفلسفة المادية الغالبة على الفكر الأوروبي وحكمها القصور البشري الذي يعجز عن أن يأخذ الصورة المثلى لله، ولابد أن يأتي بها وحي من السماء، ولما كانوا فلاسفة وليسوا أنبياء، فقد وقفوا في منتصف الطريق.

وفي الوقت الذي رفض فكر الإحياء الإسلامي طريقة ومنهج علم الكلام، فإنه وجد طلبه في منهج القرآن الكريم وتلاقي العقل مع الوحي في اعتبار أن القضية المحورية في الإسلام (وبالطبع في كل دين) هي الإيمان بالله. ومن أصل هذا جاء البند 8 الأول من ميثاق دعوة الإحياء الإسلامي يبرز هذا الإيمان أولاً وقبل كل شيء. ويبرزه بالصورة العقلانية/القرآنية. وتعتبر نقطة البداية وواسطة العقد في الإيمان الإسلامي الذي يغطي الكون كله وليس الإنسان الذي يعيش على كوكب من أصغر كواكب الكون..

وهذه الصور المميزة للإيمان بالله هي ما تميز دعوة الإحياء الإسلامي عن بقية الدعوات كافة.. أوروبية.
أو إسلامية.. وما يعطيها رشد الحياة وعمق الدين والتواصل مع الكون.

ومن خصائص دعوة الإحياء الإسلامي أنها لا تقتصر في النظر إلى الدين على النظر إليه من داخله، كما تفعل بقية الدعوات الإسلامية فتحصر نفسها فيه، ولا تعرف شيئًا عما سواه. إن دعوة الإحياء الإسلامي تنظر إلى الدين من خارجه أيضًا بحيث ترى الصورة الكلية للدين فلا تضللها آحاد الأشجار عن الغابة، وهي تصطحب معارف من

خارج الدين أيضًا. كما لا تفعل بقية الدعوات. ذلك لأن الحقيقة الكلية التي يمكن أن ترمز إلى الله أشبه ببحيرة كبيرة ينبع منها نهر رئيسي هو الدين، كما ينبع منها أنهار أخرى أقل حجمًا تحمل أسماء الفلسفة. العلوم، الفنون، والآداب، والاجتماع، والاقتصاد، وتاريخ الحضارات الإنسانية قديمًا وحديثًا ونظم الحكم إلخ.. وهذه الأنهار تنبع من البحيرة نفسها "الحقيقة" وتصب في المصب نفسه وهو الإنسان، ومع أنها جميعًا تنبع من بحيرة واحدة، فإن كل نهر يحمل – بفضل مجراه الخاص – إضافة إلى المصب والإنسان وكل من يلم بما يأتي به هذه الأنهار ويعلم مضامينها فإنه يكون أقدر فهم الدين فعندما يتحدث الإسلام عن حرية الاعتقاد – فإن ما عرفه من تاريخ الحضارة ونظم الحكم وارتباطهما بالحرية سيعزز إيمانه بما جاء به الإسلام عن الحرية، وإذا علم تاريخ ووسائل استغلال المرابين للمدينين، وكيف أن الربا كان يؤدي إلى استرقاق المدين نفسه، فإن إيمانه بتحريم الإسلام للربا سيتأكد، وبالمثل فإنه عندما يعرف ما يؤدي إليه الاستئثار والاستبداد من الكوارث فإن تنديد القرآن بطغيان الحكام والفراعن سيتدعم، وبهذا يكون إيمان المؤمن إيمانًا بصيرًا وليس أعمى، عميقا وليس سطحيًا. وانعدام معرفة الشيوخ والفقهاء بهذه المعارف واقتصارهم في فهم الدين على الدين نفسه ووحده جعل إحساسهم بكل ما القرآن من قيم كالحرية والعدالة إلخ.. ضحلاً وسطحيًا. فهم يتحدثون باستمرار عن أن القرآن كرم بني آدم، وندد بالاستغلال ولكن هذا الكلام ليس له أي مضمون عملي لديهم، وهم أنفسهم يمتهنون كرامة الإنسان ويمارسون الاستغلال لأن المضمون العملي الذي هو روح كلامهم إنما يتعزز بفضل معرفة النظم السياسية في العالم بأسره، وطرق الحكم وأنماط الحضارات وحركات الجماهير إلخ.. وهم يجهلون هذا كله "لأنه يخرج فيما رأوا عن إطار العلم الديني".

ومن هنا اتسمت دعوى الإحياء بالشمول والفهم عامة والتسامح التي لا يطيقها، ولا يقبلها، الذين حصروا أنفسهم في "النصوص".

ولم يحدث أي تفارق بين ما تقدمه العلوم والفنون والتاريخ إلخ.. وما يقدمه الإسلام لأننا من البداية – وعلى نقيض مسلك الآخرين. عمدنا رأسًا إلى القرآن الكريم. ولو أننا – أخذنا بكلام الفقهاء والمفسرين لوجدنا تعارضًا كبيرًا.

إن دعوة الإحياء الإسلامي عندما انطلقت من القرآن وحده، رافضة الالتزام بكلام المفسرين تراءت لها عظمة وروعة وعبقرية القرآن وتفتحت آفاقه وعطاؤه الذي لا يحد، وكانت تحجبه غشاوات مجلدات التفسير. ومن ثم أمكن أن نستلهم معظم مبادئ وأصول دعوة الإحياء الإسلامي من القرآن الكريم نفسه، ووحده. وأن نعززها بشواهد التاريخ.

وقد وجد فقه دعوة الإحياء. أن نصوص القرآن الكريم عن كرامة الإنسان، وحرية الفكر، والمساواة مع المرأة، تزيد عما وضعته المعايير الدولية لها.

بعد هذا المنطق القرآني وجدنا أمامنا السنة، وهي مادة الفقه الإسلامي ولحمته وسداه، وإليها أكثر من القرآن – يعود بناء الفقه الإسلامي والفكر الإسلامي عامة. وإليها ينسب الفقهاء معظم أحكامهم.

ولكن دعوة الإحياء الإسلامي لم تتقاعس، أو تستسلم فأبدعت تخريجين حلت بهما أزمة السنة المستعصية.

التخريج الأول: ضبط السنة بضوابط القرآن الكريم. وهذا ما لا يمكن أن يرفضه أنصار السنة نفسها، وفي الوقت نفسه، فإنه عند تطبيقه بالفعل (وهو الأمر الذي أحجموا عن ممارسته) قد يستبعد ربع أو خمس ما جاء في الصحاح.

وترفض دعوة الإحياء الإسلامي كل ما يوجه إليها من ادعاءات.. هل خفي ذلك على البخاري ومسلم واستكشفتموه أنتم؟ وهي تراه نوعًا من الفرار من المقولة إلى

القائل وشكلاً من أشكال الإرهاب وتقديس الأسلاف الذي ندد به القرآن َ﴿**إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾.

نقول نعم، لقد تهيأ لنا من وسائل البحث والتحميص وبفضل شيوع الثقافة والمعرفة ما لم يتهيأ للسابقين، ومن الطبيعي أن نصل إلى ما لم يصلوا إليه، ولا يمس هذا في شيء إخلاصهم وتفانيهم وتقواهم.

التخريج الثاني: هو أن كل ما قاله أو فعله الرسول خارج الإطار القرآن إنما جاء بوحي سني، أريد به البقاء ما بقيت الدواعي والأسباب دون أن يكون له تأبيد وحي القرآن.

ولم تبدع دعوة الإحياء الإسلامي هذه الفكرة أو تخترعها من تلقاء نفسها أو بحكم هواها، ورغباتها ولكنها بنتها على مقدمات ثابتة هي:

1- أن القرآن الكريم أغفل ذكر تفاصيل عديدة سواء بالنسبة للشعائر من صلاة أو زكاة أو بقية فرائض الإسلام إلخ.. وبالطبع فإن إغفاله هذا لم يكن نسيًا.. ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴾.

وما نفهمه من هذا هو أن القرآن الكريم أراد للكليات الكبرى التأييد، أما تفاصيل هذه الكليات فلم يرد لهم التأييد ولو أراد لذكرها.

2- لما كان من الضروري تحديد هذه التفصيلات فإن القرآن وكل تبيانها للرسول ﴿**.. لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾.

3- قام الرسول بهذه المهمة لا من لقاء نفسه، ولكن طبقًا لوحي سـني يختلف في طريقته ومقتضـاه عن الـوحي القـرآني الـذي كـان له طبيعة ممـيزة ومقتضى صارم هو تبليغ النص القرآني بحرفيته.

4- في الوقت نفسه فإن الرسول نهي عن كتابة حديثه، وأمر من كتب شيئًا أن يمحوه. وهذه قضية ثابتة لا يجوز التماحك فيها. فإن التدوين لم يبدأ إلا على رأس المائة الأولى للهجرة على يدي عمر بن عبد العزيز.

ومدلول هذه الواقعة أن الرسول نفسه لم يشأ لما أمر به من تفاصيل صفة التأييد القرآنية، وبهذا التقى مع القرآن نفسه، وهو الأمر المنتظر.. فما جاء به الوحي السني يظل ما دامت الأوضاع تتحمله، وتتجاوب معه فإذا لم يحدث وجب العودة إلى القرآن الكريم لاستنباط أحكام جديدة تتفق معه، ومع الأوضاع أيضًا ﴿ **لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾. دون أن يكون الداعي لهذا هو الهوى أو الاختيان.

وقد صرح بعض الفقهاء ومنهم السيد رشيد رضا، أن الصحابة رفضوا أن يجعلوا الأحاديث دينًا عامًا ودائمًا كالقرآن. وذهبت إحدى فتاوى الأزهر أن السنة لا تستقل بإثبات الإيجاب والتحريم.

بل إن هذا هو ما صرح به الرسول عليه السلام في الحديث عن عوف بن مالك قال: خرج علينا رسول الله وهو مرعوب متغير اللون فقال: " أطيعوني ما دمت فيكم، وعليكم بكتاب الله عز وجل فأحلوا حلاله وحرموا حرمه " وفي رواية " خطبنا رسول الله بالهجير وهو مرعوب فقال " أطيعوني ما كنت بين أظهركم وعليكم بكتاب الله أحلو حلاله وحرموا حرامه " هذا الحديث الذي اجتمع فيه أربعة من الصحابة يروي بعضهم عن بعض ينبئ بأن الرسول استشرف أن المسلمين سيحلون السنة دون أن يكون موجودًا ليظهر ما تطرق إليها من خطأ أو نسيان أو وضع محل القرآن الكريم فتملكه الكرب.. [4].

[4] (?) انظر الحديث في زيادات محاسـن الإطلاع على مقدمـة ابن الصـلاح للبلقيـني تحقيـق الـدكتورة عائشة عبد الرحمن (دار المعارف بمصر) ص 684 – والحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائـد 1/ 170 وقال رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

بهذين التخريجين لم تعد السنة عقبة فضلاً عن أن دعوة الإحياء الإسلامي تجعل الرسول المثل البشري الأعلى والأسوة لكل المؤمنين، وأنها تتمسك بما وضعه من تقاليد كرئيس دولة، وهو جانب يرى الفقهاء أنه ليس تشريعًا[5].

***

بعد القرآن والسنة – وجدت دعوة الإحياء الإسلامي – أمامها التلال المتعالية، والمجلدات المتعددة من أحكام المذاهب وما وضعه الفقهاء على مدار ألف عام. ودعوة الإحياء الإسلامي تنحي كل هذا جانبًا، لأنها لا تقبل أن يفكر الآخرون لها أو ترى الأمور بعيون ميتة، ولأنها تؤمن أن القرآن الكريم يحثها على الفكر، وعلى " ما أنزل الله " وليس إتباع الآباء والأسلاف. فهؤلاء الأسلاف رغم تفانيهم وإخلاصهم – لم يرزقوا الكمال.

ولا تجد دعوة الإحياء الإسلامي حرجًا في أن تعلن أن الفقهاء عندما أجمعوا على النسخ في القرآن وعلى تحديد القتل عقوبة للمرتد كانوا يصدرون عن روح عصرهم، والصناعة الفقهية التي وضعوها – ذلك لأنهم ليسوا معصومين، أما دعوى الإجماع فقد أنكرها الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما.

ولهذا فلا تجد دعوة الإحياء مشكلة مع التراث الفقهي لأنها إما أن تستبعده تمامًا، أو تستأنس به في هذا الفقه الجديد يحل العديد من أزمات المجتمع الإسلامي التي اعتمدت على الفقه السلفي. فقد ميزنا بين العقيدة والشريعة، وهو تمييز أشار إليه الشيخ شلتوت رحمه الله في كتابه " الإسلام عقيدة وشريعة " ولكن الشيخ شلتوت لم يذهب بهذا التمييز إلى منتهاه، وإلى ما يستتبعه، الأمر الذي قام به فقه الإحياء الإسلامي إذ وجد أن العقيدة لها هدف وآليات تختلف عن هدف وآليات الشريعة. فالعقيدة تتجه إلى القلب وتستهدف الإيمان وتستلهم الوحي ووسائلها قراءة القرآن وتدبيره والقربات إلى الله تعالى.

بهذا الأساس لا يمكن للعقيدة أن تزج بنفسها في خضم الدولة، أو المجتمع. إن مجالها الوحيد هو الفرد، وقلبه وكل توجيهات القرآن الكريم العقيدية هي إلى الأفراد وإذا جاوزت العقيدة هذا النطاق الطبيعي لها إلى الدولة، أو المجتمع، أو حتى مثلث نفسها في مؤسسة خاصة بها فإنها ستوجد الدولة الثيولوجية التي لا تكون دول العقيدة [6] ولكن دولة الكهنوت، وهو أسوأ تشويه يمكن أن تصاب به العقيدة. بل ويقضي عليها كعقيدة.

إن هذا التكييف قد حل أكبر أزمة في مشكلة الحكم الإسلامي لأنه أبعد العقيدة عن مجال الحكم وحصرها في الأفراد، ولم يكن هذا تحكمًا أو هوى ولكن بناء على طبيعة العقيدة.

أما الذي يدخل في مجال الحكم فهو " الشريعة "، والشريعة هي عالم العلاقات الإنسانية: أصحاب الأعمال مع العمال، الحكام مع المحكومين، الأغنياء مع الفقراء، الرجال مع النساء إلخ.. ففي هذه العلاقات يكون الهدف هو العدل وتكون الوسيلة هي القانون، ويكون الفيصل هو العقل وبهذا يصبح للدولة الإسلامية في أحكامها طابعًا عقلانيًا.

وإيمان الأفراد بالعقيدة يتفاعل تفاعلاً جدليًا مع التنظيم العقلاني للدولة فإيمان الأفراد يجعلهم يطلبون تطبيق الشريعة، والطبيعة العقلانية للشريعة تحمي العقيدة من تسلل الخرافة.

---

5 (?) لا يتسع المجال للتفصيل وقد عولج الأمر في الجزء الثاني من كتاب " نحو فقه جديد " وهو المخصص للسنة فعلى من يريد التفصيل إليه. وكذلك في كتابنا "الأصلان العظيمان. الكتاب والسنة ".

6 (?) والمصطلح نفسه سقيم، فليس هناك دولة للعقيدة ولكن يمكن أن نقول أمة العقيدة.

وفي قضية الفنون والآداب والتعددية بصفة عامة فإن فقه الإحياء عاد بها إلى الإنسان لا إلى الإيمان واعتبرها من حرث الدنيا وثمرة النفس الإنسانية بفجورها وتقواها. ومن ثم فلا تطبق عليها ضوابط العقيدة ولكن ضوابط الشريعة. على أن الاثنتين – العقيدة والشريعة – تحتفظان بمساحة كبيرة من الحرية، حرية الفكر والاعتقاد والتجليات الإنسانية التي تتمثل في الفنون والآداب، والعقيدة نفسها تنص على أن عطاء الله تعالى ليس محظورًا عن الذين يبتغون حرث الدنيا وأن حسابهم إنما يكون لله تعالى ليوم القيامة.

وبهذه الطريقة يمكن أن يوجد في المجتمع الإسلامي صور عديدة من الفنون قد يستهدف بعضها أرواء الشهوات لأن هذا ما لم يستبعده القرآن من الإنسان وما ألهم الله النفس البشرية من فجور وتقوى ولا تحاسب هذه الفنون كما لو كانت نشاطًا إسلاميًا، لأنها نشاط إنساني يعود حسابه وعقابه إلى الله يوم القيامة، ما دام ليس هناك إجبار على ممارسة هذه الفنون أو مشاهدتها أو الاشتراك فيها بقوة أو بأمر السلطة[7].

أما قضــية الاقتصــاد ومشــكلة الربا المعقــدة فإنها بنظــرة واحــدة رأت أن كلمة " وتظلمون" الأخيرة في الآية ﴿ **وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُــونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ** ﴾ يتضمن اعترافًا بأثر التضخم حتى لا يــؤدي تجاهله إلى الحيف على الــدائن وظلمه لأن الظلم كريه في الإسلام سواء كان للمدين أو الدائن، ومن ثم فليس هنــاك تحريم على أكثر أنواع الربا انتشارًا في عصر يجعل التضخم أمرًا لازمًا..

وتوصل الفقه الجديد إلى نظرية تلاقي الحقوق والواجبات بين العمال وأصحاب الأعمال التي تحسم شافة تناقض المصالح والصراع الطبقي وتحوله إلى اختلاف حول قسمة العائد يحسمه العدل الإسلامي. كما لم نجد صعوبة من تفسير الآية 282 من سورة البقرة تفسيرًا يوجب ويقر الاتفاقيات الجماعية أو عقد العمل المشترك كما قد يطلق عليه في بعض الحالات وهو جوهر النقابية [8].

وقد عزز الفقه الجديد قاعدة "إساءة استخدام الحق " وما تتطلبه من ضبط لأنها تحقق العدل، وهو الهدف الرئيسي للشريعة، قدر ما عزف عن " سد الذرائع " لأنها تخالف أسلوب المقاصة الذي وضعه القرآن الكريم ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ كما تتناقض مع منطقة – أي منطق المقاصة – في آيات عديدة.

***

هذا عرض سريع للطريق التي توصلت بها دعوة الإحياء الإسلامي إلى أسسها، ووسيلة تعاملها مع هذه الأسس، وكيف أنها بذلك بددت الكثير من الشبهات وحلت الكثير من المشكلات التي أوجدتها تعقيدات الفكر السلفي والفقه التقليدي. وستقدم بقية فصول هذا البحث المزيد من الشرح والإبانة.

---

7 (?) وانظر أيضًا في الفصل الخامس الموقف من الفنون.

8 (?) انظر كتابنا الإسلام والحركة النقابية من ص 82 إلى ص 85

- 4 -
نزعة الماضوية تتناقض مع الإسلام

لما كانت نزعة الماضوية هي أبرز وأعم ما تتسم به الدعوات الإسلامية المعاصرة، وأنها هي السمة المشتركة بينها جميعًا، فقد رأينا أن نفرد لتفنيده هذا الفصل الموجز لعله أن يشفي هذه الدعوات من دائها العضال، فمهما كان نبل العاطفة التي تشد هذه الدعوات إلى الماضي المجيد، ونحو القرون الثلاثة التي ارتأت أنها أفضل القرون، ونحو الشخصيات النابهة، العظيمة، والمباركة بصحبة الرسول، فإن التحليل العميق لهذه النزعة يثبت أنها ليست من الإسلام، بل إنها تناقض الإسلام.

وتناقضها مع الإسلام يتأتى من أمرين:

الأول: أن الإسلام يمثل المستقبلية في حين أن هذه النزعة تمثل الماضوية.

الثاني: أن الإسلام يمثل الموضوعية وهذه النزعة تمثل الذاتية.

وفيما يلي تفصيل هذا الإجمال.

المستقبلية والماضوية:

يغرس الفلاح البذور في الأرض ناظرًا للمستقبل الذي سيجعل هذه البذرة نباتات باسقة، وهو لا يتصور أنه سيأكل منها فورًا، كما أنه عندما غرسها في الأرض حرم نفسه لذة استهلاكها، ولو أنه استهلكها لكسب الحاضر وخسر المستقبل، ولحصل على حمل جوال من " التقاوي " بينما كان من الممكن لو زرع هذه التقاوي أن توجد له أطنانًا من المحاصيل..

ويوفر التاجر من أرباحه فلا ينفقها على ملذاته، ولكنه يدخرها ويعيد استثمارها ويحرم نفسه مما توفره من استمتاع لأنه يعمل للمستقبل.. لا للحاضر..

الإسلام كهذا الفلاح والتاجر، إنه يجعل الحياة الدنيا بأسرها مزرعة للآخرة، فهو ينظر للمستقبل إلى مدى أبعد مما يتصوره كل المستقبليين، لأنه يستخدم الحياة الدنيا بأسرها كقنطرة للحياة الآخرة. بحيث تكون الحياة عملاً ودأبًا وكدحًا وكفاحًا ومجالاً لأداء الصالحات وكبح الشهوات وهذا العم والكفاح هو سمة كل الدعوات "المستقبلية " وتميز الإسلام هو أنه يجعل الدنيا بأسرها قنطرة للمستقبل في حين أن الدعوات المستقبلية الأخرى تضع مدى محددًا أو أن يسخر الأب حياته لمستقبل أبنائه.

ففكرة العكوف على الماضي واستلهامه مخالف تمامًا للإسلام لأنها تحول دون العمل والإبداع وأداء الصالحات وكبح الشهوات وتوجد بديلاً عن هذا كله في التغزل في هذا الماضي والإشادة به. أو تجعل الشحاذة منه عملاً وحرفة، وهي في أعماقها مرض نفسي تبرر به النفس عجزها عن العمل، وسيادة السلبية عليها، والإسلام في مستقبليته لا ينظر إلى الماضي ولا يقدس القبور، أو يعلي بنيانها، بل يطمس معالمها، وإذا كان قد سمح بزيارتها فللاعتبار، وقد رأى أن التمسح بأركانها أو تصور أي قوة فيها نوع من الشرك والماضوية في حقيقتها " قبورية" ووثنية..

الموضوعية والذاتية:

والجانب الثاني الذي تتنافى فيه الماضوية مع الإسلام. أن الإسلام موضوعي. أي أنه يمثل الفكر، والمبدأ والقيم في حين أن الماضوية تمثل التراث، والأشخاص والممارسات، وفي حين أطلق الإسلام على أتباعه اسم " المسلمين " أي الذي يؤمنون بالإسلام وقيمه الموضوعية فإن الماضوية جعلت أصحابها يحملون اسم " السلفية " وما السلفية إلا أتباع السلف وطرائقهم ومذاهبهم ولو كان الإسلام له طبيعة ذاتية لكان الاسم الطبيعة لأتباعه " المحمديين " ولكن الإسلام رفض هذا وسمي أتباعه المسلمين أو المؤمنين ويتضح مدى الفرق في أن وسيلة الموضوعية هي الفكر، وأن وسيلة السلفية هي التقليد فالفرق بين الموضوعية والسلفية هو

الفرق بين التفكير والتقليد، وقد يصور هذا الآيات العديدة التي تندد بالذين إذا دعوا إلى ما أنزل الله (الموضوعية) قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا (السلفية).

ولما كان الإسلام محكمًا في بنائه، كالجسد الواحد الذي يعمل كل عضو فيه لمصلحة الجسم كله دون أن تتنافر مهمة عضو مع مهمة بقية الأعضاء أو تعمل ما يسيء إلى الجسد بل تتلاقى كلها في العمل له. فإن عزوف الإسلام عن الماضوية يتلاقى مع نفوره من الذاتية ويجمع هذا وذاك في نهيه عن تقديس الأشخاص أو توثين الأشياء أو إتباع الآباء والأجداد. ومن دلائل ذلك تمجيده للمسجد وتنديده بالقبور وأمره بالتفكير ونهيه عن التقليد وبهذا يكون الإسلام بمستقبليته وموضوعيته في واد والسلفية بماضويتها وذاتيتها في واد آخر.

وقد يجعلنا هذا نفهم كيف أن الدعوات الإسلامية عندما تمسكت بالماضوية كأحد رموزها ومقدساتها، فإنها في الحقيقة كانت تؤمن بفكرة تناقض الإسلام وأن هذا هو من أكبر أسرار فشل هذه الدعوات وعجزها عن التعامل مع الواقع، ولو كانت الماضوية من الإسلام لكان يجب أن تنتصر ولو دعوة واحدة من هذه الدعوات.

والقرآن الكريم والسنة النبوية سواء في رفض الماضوية وسلفيتها وذاتيتها لأنهما معًا يدعوان إلى المستقبلية والموضعية.

وأي شيء أكثر حسمًا وقوة في التنديد بإتباع الآباء والأجداد من هذه الآيات.

﴿ **قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُون** ﴾ (170 البقرة)

﴿ **قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ** ﴾ (104 المائدة)

﴿ **قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** ﴾ (78 يونس)

﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم** ﴾ (40 يونس)

﴿ **لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾ (54 الأنبياء)

﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ (22 الزخرف)

﴿ **أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** ﴾ (62 هود)

وكل الآيات أو الأحاديث التي تشيد بأشخاص فإنما يكون هذا لأعمالهم وليس لأشخاصهم كما لا يضفي القرآن على أحد من المخلوقين عصمة أو توثينًا وقد خص الله تعالى رسله بوحيه وتوجيهه ولهذا جاز للمؤمنين أن يكون الرسول أسوة لهم وهي صفة ليست لغيره، وعندما أمتدح الصحابة فإنه أمتدحه لأنهم ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا** ﴾ وختم الآية ﴿ **وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ وكل آيات المدح في القرآن تنصب على ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ ولم يعد الله تعالى العرب بوراثة الأرض ولكن " الصَّالِحِينَ " ولم يعط للأنبياء من سلطة سوى التبليغ والبيان وحذرهم في عبارات جازمة نجاوز هذا.

وقال الرسول " مثل أمتي مثل المطر لا يـدري أوله خـير أم أخـره ". بل لقد فضل الرسول ﷺ الذين آمنوا به ولم يـروه، وأرد الإمـام أحمد بن حنبل في مسـنده عـددًا من الأحاديث بهذا المعنى منها:

- عن أبي محيزيز قال قلت لأبي جمعة رجل من الصحابة رضي الله عنه حدثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ قال نعم أحدثكم حديثًا جيدًا، تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال يا رسول الله هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك قال نعم قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني.
- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قــال: قــال رســول الله ﷺ وددت أني لقيت إخواني فقال أصـحاب النـبي ﷺ نحن إخوانـك. قـال أنتم أصـحابي، ولكن إخـواني الذين آمنوا بي ولم يروني.
- وعن أبي أمامة رضي الله عنه قــال: رســول الله ﷺ طــوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع مرات.
- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قــال رسـول الله ﷺ طـوبى لمن آمن بي ورآني مرة وطوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع مرات[9].

وهذا يدل على أن الأخلاف قد يكونون أفضل من الأسلاف وأن الذين لم يشاهدوا النبي وآمنوا به أفضل من الذين شاهدوه وآمنوا به.

فإذا قيل إن الرسول قال عن أصحابه " والذي نفس محمد بيده لو أن أحدًا أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " فإن ذلك إنما كان لأن كفاحهم مع الرسول أدى لظهور ونجاح الإسلام، وهو – في النهاية – يصب في تيار المستقبلية والموضوعية.

[9] (?) انظر الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للشيخ الوالد رحمـه اللـه ج 1 ص 105 – 107 وقد أورد البخاري في خلق أفعال العباد رواية عن أبي جمعة بالمعنى نفسه.

- 5 -
الركائز الثلاث لدعوة الإحياء الإسلامي القرآن – الإنسان – الزمان

تقوم دعوة الإحياء الإسلامي على ثلاث ركائز هي القرآن – باعتباره المنبع، والإنسان باعتباره المصب ثم الزمان باعتباره الإطار الذي يحيط بالدعوة، ويتفاعل معها ويضفي عليها ضروراته.

أولاً: القرآن:

قد لا يعد أمرًا فيه جدة أو إبداع أن تجعل دعوة الإحياء الإسلامي القرآن – ركيزتها الأولى، فكل الدعوات الإسلامية تفعل هذا، وقد قالها الإخوان المسلمون من قبل- بأبلغ وأوجزها عبارة " القرآن دستورنا ".

ولكن الفرق الحاسم بين دعوة الإحياء وبقية الدعوات الإسلامية هو في فهم القرآن، هذا الفهم الذي لم يخطر ببال الدعوات الإسلامية ولم تتصوره.

فالدعوات الإسلامية تفهم القرآن عبر التفاسير المعتمدة (الطبري – القرطبي – ابن كثير – الرازي إلخ..) في حين أن دعوة الإحياء ترفض الالتزام بها تمامًا، كما ترفض ما جاء به السلف من " علوم القرآن " مثل النسخ وأسباب النزول[10].

وسلكوا مسلك الأمم الغابرة من كتبهم المقدسة، رغم تحذير الرسول واليوم تنقذ دعوة الإحياء الإسلامي القرآن من هذه الغشاوات والإضافات والإسقاطات التي حجبت نوره ليشرق من جديد وليهدي الأبصار، ويحرر الأذهان.

***

إن دعوة الإحياء الإسلامي تستشف بالقراءة المتكررة للقرآن الكريم وما تخلفه هذه القراءة من انطباعات روح القرآن والمضامين الرئيسية التي تنطوي عليها سوره وآياته..

فالقرآن الكريم أولاً إرادة تغيير كاسحة لم تعرف البشرية لها مثيلاً بحيث لا يكون من المبالغة القول إن الثورة التي أحدثها القرآن كانت أعظم ثورة جماهيرية في التاريخ لا يستثنى من ذلك ثورة اليهودية وإنقاذها بني إسرائيل من الاستغلال الفرعوني وثورة المسيحية وتحريها للمستضعفين في الأرض من الطغيان الروماني، إذ اجتمع لثورة الإسلام من عناصر الكمال ما لم يكتمل لهذين.

قبل الإسلام كان العرب يعبدون أوثانًا لا تنفع ولا تضر ويقدسون الأعراف والعادات التي تركها لهم آباؤهم وتقوم حياتهم على السلب والنهب آونة وشرب الخمر ولعب الميسر آونة أخرى فندد القرآن بهم، وبآبائهم **إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا**   **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ**   **لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** وجههم نحو عبادة الله الخالق بديع السماوات والأرض الرحمن الرحيم إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، وله

---

10 (?) نقصد بأسباب النزول هنا ما تورده الكتب التقليدية ككتب السيوطي وغيره التي تورد أسبابًا للنزول بناء على أحاديث أغلبها موضوعة ولكن يمكن الاستثناء بملابسات النزول التي توردها الوقائع الثابتة كما هو الشأن في بعض الآيات التي سمحت بالقتال ردًا على العدوان أو درءًا للفتنة؟

المثل الأعلى والأسماء الحسنى، وما ترمز إليه من رحمة وعدل وصدق ووفاء وحرية، وعمق معنى العدل بكل الطرق وندد بالظلم والطغيان.

وعرف القرآن المجتمع الجاهلي على أمر لم يكن له به معرفة هو الإنسان الذي كرمه الله فجعله خليفة في الأرض وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة وسخر له ما في الأرض جميعًا بحيث إن هذا الإنسان تحمل " الأمانة " التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها.

هذه المعاني: وأعني إرادة تغيير ما خلف الآباء والتنديد بإهمال العقل، والدعوة لتكريم الإنسان هي روح القرآن والمضامين الفعالة فيه.. وهي مما لا تشير إليها التفسيرات التقليدية ولا الدعوات الإسلامية، ولعلها لم تتعرف عليها وموقفهم منها لا يختلف عن موقف الجاهلية.

لقد أدى انشغال التفاسير التقليدية بالإعجاز البياني وتأثرها بالإسرائيليات والأحاديث الموضوعة والأبيات الشعرية المنحولة إلى عدم تبين القسمات التي بدونها لا يمكن فهم طبيعة وروح القرآن.

ففي القرآن الكريم إيماءات وإيحاءات تنطلق بسرعة البرق أو كلمح البصر – من الخاص إلى العام، ومن الواقع إلى الواجب، ومن الحاضر إلى المستقبل، وهناك من الألفاظ ما يقبل العديد من المعاني دون ابتسار أو تطويع، بحيث يمكن إعمال تفسيرات عديدة، كل واحد في وقت معين، أو بالنسبة لمكان معين، بحيث يكون القرآن الكريم مرجعًا لكل الناس في كل العصور، ونحن لم نجد صعوبة في تفسير الآية 282 من سورة البقرة (وهي آية الدين – أطول آيات القرآن) تفسيرًا نقابيًا يجعلها أصلاً للاتفاقيات الجماعية [11] مع أن مثل هذا التفسير ما كان يمكن أن يخطر لمفسر في العصر القديم لأن الاتفاقيات الجماعية لم تظهر في العالم إلا في منتصف القرن التاسع عشر عندما استطاع العمال البريطانيون والأمريكيون تكوين نقابات قوية تستطيع إبرام اتفاقيات أو عقود جماعية مع الشركات وأصحاب الأعمال. كما أن كلمة تظلمون الثانية في الآية ﴿ **فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ** ﴾ تفسح المجال لتفسيرها بأن تكون قيمة الدين هي القيمة الحقيقية – وليست الاسمية – للنقود وهي التي تهبط نتيجة للتضخم وبهذا تحل مشكلة الربا على أساس عادل ومعقول، كما قال القرآن أربعة كلمات لحل مشكلة الرق.. " فأما منًّا بعد، وإما فداء "، وبهذا يمكن سد منبع الرق، أما القائم بالفعل فيمكن سده أيضًا من القرآن بالاستجابة لطلب المكاتبة. ولكي يبرهن القرآن على وجود الله، قال تعالى: ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ وهي أقوى من أي منطق يمكن أن يأتي به أرسطو، ولو فسر أحد اليساريين الآية ﴿**الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ**﴾ بأن الدين هو "الخبز والحرية" لما كان متجنيًا لأن "أطعمهم"

---

[11] (?) انظر الإسلام والحركة النقابية – جمال البنا ص 82 – 85.

إشارة صريحة إلى الخبز، ولأن "آمنهم من الخوف" لا يمكن أن يتحقق إلا بالحرية، ففي المجتمعات العريقة في الحرية ينام المواطن ملء عينيه دون أن يخطر بباله أن يدهمه زائر الفجر.

وهل كان أحد في العصر القديم يدرك أن تعبير "بلى قادرين على أن نسوى بنانه" ليس له من تفسير يبين الإعجاز إلا ما أظهره العلم الحديث من تفرد كل بنان لكل واحد ببصمة متميزة لا تشبه ملايين البصمات.

أما الإعجاز العلمي والإعجاز العددي وما تلهمه أوائل بعض السور فهذا ما أوحى إلى لفيف من العلماء بإصدار مئات الكتب ولو استبعدنا معظمها، فإن الباقي يكفي لتأكيد صحة ما ذهبنا إليه من أن اللفظة القرآنية أشبه ببويضة مخصبة. لا يعلم أحد ما فيها حتى يأتي الوقت المناسب ليظهر معنى جديد خفي على السابقين.

ولعل عمر بن الخطاب وقف هذا الموقف عندما قال عما قد لا يفهمه من ألفاظ في القرآن "دعوها لخالقها" وما جعله لا يأسى لجهله معنى "أبا" في "وفاكهة وأبا" فهناك من الألفاظ ما قد يعجز جيل عن أن يدركها لأن فهمها لن يتأتى إلا لجيل لاحق.

ومثل هذا ما يقال عن أن القرآن حمال، ذو وجوه، وأنه يمكن أن يتضمن حكمًا كما يتضمن نقيضه ويمكن أن يفهم منه واحد ما لا يفهمه واحد آخر. فهذا كله من مزايا القرآن. لأنه يفسح المجال للتعددية. فالقرآن لا يريد أن يوقف الناس على مثل حد السيف وهو يفسح لهم الأخذ بهذا أو ذاك، فالإسلام منزل لكل الشعوب في كل الأزمان، وحتى في المجتمع الواحد فإن هذا يثير الفكر ويحرك الحزائم وفي النهاية يذهب الزبد جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

وظن بعض الساذجين أو المغرضين خاصة من المستشرقين أن وجود آيات في القرآن تتفق مع بعض ما جاء في العهد القديم أو الأناجيل يثبت أن الرسول نقل في القرآن هذه المعلومات عن طريق اتصاله ببعض اليهود أو المسيحيين. وفاتهم ما قرره القرآن من أن الدين أصلاً واحدًا، ولذلك لا يستنكر أن يأتي القرآن ببعض ما جاء في الكتب السابقة، بل إن القرآن نص ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ** ﴾ وأن كل الأنبياء كانوا مسلمين بنوع ما. فضلاً عن أن من المسلم به أن اتفاق بعض المعلومات في كتب مختلفة يمكن أن يعود إلى أسباب غير النقل فالحكم بأن ما جاء في القرآن منقول عن العهد القديم أو الأناجيل هو لزوم
ما لا يلزم، فضلاً عن أن هناك اختلافات عديدة في التفاصيل ما بين القرآن والأناجيل والعهد القديم وليست القضية إيراد بعض معلومات كانت معروفة بين المعنيين.. ولكن العرض الخاص والمميز لها في القرآن بما يتسق مع السياق القرآني والأصول الإسلامية.

ولم يفهم البعض أن توجد آيات تعرض قتالاً وأخرى توجب سلامًا في حين أن الحرب والسلام لابد وأن يعرضا للمجتمع. فقد حورب الإسلام بقوة وشراسة تتطلب

المقابلة بالحرب فتأتي الآية "وقاتلوهم" ولكن عندما لا يحارب الإسلام فتطبق الآية **لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** (الممتحنة 8)

وقد توجد آيات تعد بثواب جزيل وتأتي آيات أخرى تحذر من عذاب وبيـل، وكـان لابد من هذا لأن النفوس تتفاوت.

وكما قال شوقي..

ومن العقول جداول وجلامد   ومن القلوب حرائر وإماء

وصاحب الطبع الجاف والقلب الغليظ يحتاج إلى هذه القوارع التي تجلده وتجعله يتأثر بينما تكون آيات الصفح والسماح واللين والمغفرة لذوي المشاعر النبيلة كالنسمة الرقيقة.

ولو أن القرآن اقتصر على واحدة لما أثر ذلك على فئات عديدة من الناس موجودة بالفعل سواء أحببنا ذلك أو كرهناه ولا تزال فكرة الثواب والعقاب – رغم ما يوجه لها من نقد هي أكبر ما يؤثر في النفس البشرية وما يضبط سير المجتمع.

وقد يذكر البعض دفاعًا عن " الحسد أو الجن " أن القرآن ذكرهما، ولكن ذكر القرآن لوجودهما لا يعني أن لهما الآثار التي ينسبها الناس إليهما خاصة وقد قرر القرآن أن لا شيء يمكن أن يؤثر أو يحول السنن، أي الأصول والأسس التي وضعها الله تعالى للمجتمع أو الكون.

وكررت أستاذة في جامعة الأزهر بصدد الدفاع عن تفضيل الرجال على النساء أن القرآن قال: "وليس الذكر كالأنثى" وفاتها أن القرآن أورد هذا القول على لسان مريم التي كانت تعبر عن فكرة اليهود وتفضيلهم الأبناء على البنات. واستشهد آخر مبرهنًا على كيد النساء أن القرآن قال "إن كيدهن عظيم" ولكن هذا إنما كان كلام أحد حاشية فرعون. فلا يحسب على القرآن في شيء..

ومن الممارسات المرفوضة أن ينتزع بعض الناس آية أو جزءًا من آية من سياقها ثم يستدل بها أو يستنبط منها حكمًا لأن السياق في القرآن هو الذي يحكم المعنى وقد يتضمن ما قبل الفقرة المنتزعة ما لا يجعلها حكمًا أو يرتفق عليها باستثناء أو غيره. ولهذا فيجب لمن يريد الاستشهاد أن يأتي بأية أو اثنتين قبل الآية التي يستشهد بها وكذلك آية أو اثنتين بعدها وبذلك يستبعد الالتباس.

ولا يمس قداسة القرآن في شيء أن تتضمن بعض آياته أحكامًا خاصة بالمجتمع العربي في القرن السابع الميلادي تعالج جوانب مما كان قائمًا وقتئذ، فلما جاوز التطور هذه الجوانب طويت الأحكام التي أصدرها القرآن عنها. فهذا أمر لم يكن منه مناص إذ لم يكن القرآن ليتجاهل هذه الجوانب وهي تؤثر في حياة المجتمع تأثيرًا

بالغًا. فلم يكن للدولة بحكم التكوين القبلي للمجتمع العربي – جيش محترف تكون مهمته القتال ويتقاضى أجورًا – وإنما كان الجيش يقوم على متطوعين وكانوا يجدون فيما يغنمون من سلاح وعتاد من أعدائهم ما يقنعهم، وقد انتفت هذه الصورة فظهر الجيش المحترف الذي يأخذ مرتبات، وبالتالي لم تعد للغنيمة مكان. فطويت الآيات التي جاءت في القرآن الكريم عن الغنائم، ولعل مثال الرق أكثر دلالة، فقد وضع القرآن الكريم مبدأ "فإما منا بعد وإما فداء" وطبقه الرسول، ولكن ظروف المجتمع لم تسمح بتطبيقه وقتئذ، وعندما هيأت التطورات المناخ للقضاء عليه نفذت الآية **﴿فإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾**.

ولما رأى عمر بن الخطاب أن سهم "المؤلفة قلوبهم" لم يعد له مكان بعد انتصار الإسلام، لم يتردد في إيقافه رغم النص عليه في القرآن كما جعل الطلاق مرة واحدة لما رأى الناس وقد أساءوا استخدام سلطاتهم، مع أن الآية صريحة "الطلاق مرتان".

وقل مثل ذلك التوقف عن تطبيق الحدود في الغزو أو في المجاعات إلخ..

وهذه السوابق توضح لنا أن الصحابة لم يكونوا جامدين، مغلقي الفهم أمام القرآن، ولعلهم تذكروا أن القرآن نفسه قال ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴾..

***

لقد كان مفتاح الفهم السلفي للقرآن الكريم أنه كتاب أدب، ولهذا صال المفسرون وجالوا في الإعجاز البياني، والحقيقة أن القرآن كتاب فن وأن معجزته العظمى هي تسخير اللغة والألفاظ لخدمة الفن بحيث تكون تصويرًا فنيًا آونة أو نظمًا موسيقيًا آونة أخرى أو معالجة نفسية للمشاعر والوجدان، ولهذا كان القرآن أعظم كتاب فني وهو ينتظر الموسيقى الذي يدرسه ليكشف أسرار الإعجاز الموسيقي فيه وقد كان الإعجاز الفني في القرآن يكفي لإحداث الهزة النفسية بمجرد سماعه. وهذه هي الخصيصة التي يتسم بها الفن. فمجرد سماع إحدى سيمفونيات بيتهوفن أو مشاهدة إحدى روائع رافائيل ومايكل أنجلو ودافنشي يحدث هزة نفسية بقدر روعة وإعجاز الفن[12] وقد

---

12 (?) إن لدينا شواهد عديدة توضح الانفعال التلقائي بالفنون فعندما سمع الموسيقار محمد عبد الوهاب لأول مرة ألحان سيد درويش امتلأت نفسه بشحنة عاطفية جعلته يجري حتى بلغ باب الحديد قبل أن تنفد هذه الشحنة. وعندما توغلت قوات الحملة الفرنسية في صعيد مصر وجاس جنودها خلال القرى والكفور والوحل والقنوات والهوام والحشرات وصلوا في الساعة التاسعة من صباح يوم 27 يناير إلى منحنى النهر فطالعهم على جانبي النهر مشهد طيبة القديمة كاملاً بما احتوته من معابد في الأقصر والكرنك. فوقفت الفرقة كلها من تلقاء نفسها، ودون أن يصدر أمر لهم. وقفوا في طوابيرهم وأدوا التحية العسكرية على قرع الطبول وعزف الموسيقى وقال رسام الحملة "دينون" كنت على الدوام مبتئسًا مريضًا ولكن دندرة أبرأتني، فما رأيته اليوم عوضني عن كل تعاستي وأنا لا أبالي اليوم ما يحدث لي فيما بقى من هذه الحملة. وسأظل أبدًا سعيدًا بأنني انخرطت في صفوفه – انظر كتاب بونابرت في مصر تأليف ج كريستوفر هيرولد ترجمة فؤاد اندرواس ص 343 ومعروف جيدًا ما يحدثه في نفس العاشق رؤية حبيبته وقد يجمده في مكانه" وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متقدم عنه ولا متأخر إلخ..

قال القرآن: ﴿ **لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ** ﴾ (21 الحشر).

وقال: ﴿ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً. وَيَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾ (108 – 107 الإسراء).

وهذه الحقيقة هامة جدًا، لأنها تثبت أن القرآن وحده، وبحكم نظمه ومعانيه يغزو النفس البشرية، ويخترقها ويهيئها للإيمان، والوقائع التاريخية في بدء النبوة تثبت ذلك وحادثة الوليد بن المغيرة الذي جاء ليثني الرسول عن دعوته فأسمعه الرسول آيات من سورة فصلت.. فامتقع وعاد "بغير الوجه الذي ذهب به" ونصح كبراء قريش بأن يكفوا عن الرسول وقال هؤلاء: "لقد سحرك محمد.. " وقالت عائشة في إحدى كلماتها النافذة "فتحت المدينة بالقرآن" وكان هذا هو الفتح الأعظم، والذي حقق فيما بعد انتصار بدر.

وهذا التأثير هو مما لا يأتي مطلقًا للتفاسير التي تهدر أثر الإعجاز الفني في الوقت الذي لا تأتي بجديد يماثله، وإنما تنقل الأقوال والحواديت واختلافات المذهبين واللغويين إلخ..

***

ثانيًا: الإنسان

أشرنا في الفقرة السابقة كيف أن القرآن الكريم عرف الجاهلية على صورة للإنسان تختلف اختلافًا حاسمًا عن الصورة القبلية المغلقة المحكومة بالأعراف. فقد تحدث عن الإنسان كاسم جنس "يا بني آدم" وربطه بالله تعالى الذي خلقه في أحسن تقويم وكرمه أعظم تكريم وجعله خليفة في الأرض وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة وسخر له قوى الطبيعة بحيث استطاع هذا الإنسان أن يتحمل "الأمانة" التي عجزت عن حملها وأشفقن منها السماوات والأرض.

وكان هناك معنى أعلنه القرآن حينًا وتضمنه السياق حينًا آخر ذلك هو أن الله تعالى أنزل القرآن للإنسان ولم ينزل الإنسان للقرآن. فالقرآن بكل قداسته ليس إلا الوسيلة التي أوحى بها الله تعالى لتحقيق غاية هي هداية الإنسان وإخراجه من الظلمات إلى النور.

لهذا فإن الإنسان في أصل كل توجيهات القرآن وهو محور الخطاب القرآني، وإذا كان القرآن هو المنبع فإن الإنسان هو المصب..

وليس شرطًا أن يكون الصحابة قد تبينوا هذه الحقائق بالصورة التي نعرضها، والتي لم نتوصل نحن أنفسنا إليها إلا بفضل الثقافات والمعارف الحديثة، ولكن هذه المعاني نفسها انطبعت في نفوسهم واستشفوها، بحكم تلاوتهم للقرآن واستماعهم له ثم

ضربت ممارسات الرسول الذي كان "خلقه القرآن" لهم المثل وما يكون عليه تطبيق توجيهات القرآن.

فالقرآن الكريم قدس الحياة الإنسانية ونهى عن قتل الإنسان إلا إذا قتل آخر عامدًا متعمدًا، وإن كان قد فتح الباب لإحلال الدية أو الصفح محل القصاص.

وأراد القرآن أن يجفف منابع الرق، فحصرها في منبع واحد هو أسرى الحرب بين المسلمين والمشركين ثم جعل مصير هؤلاء الأسرى " فإما منا بعد، وإما فداء" وحتى يتم هذا فقد جعل القرآن "عتق رقبة" كفارة للكثير من الذنوب، وجاء الرسول فطبق هذا في غزواته فأعتق أسراها وزاد في الكفارات وفي الوقت نفسه، حرر الرق من أسوأ ما فيه، وهو المعاملة الوحشية التي كان العبيد يلاقونها – إلى الدرجة التي اعتبر فيها ضرب السيد لعبده أو صفعه أمرًا يوجب عتقه. ولدينا ثلاث حالات لذلك مما سجله التاريخ – جارية أبناء مقرن – عبد أبي مسعود – عبيد من استفتى الرسول في ضربه إياهم مما دفعه لتحريرهم[13].

وساوى الإسلام ما بين الرجال والنسـاء ولم يفضل القـرآن الرجـال على النسـاء أو النساء على الرجال وإنما قال: **وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَـكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللــهَ مِن فَضْلِهِ** أما درجة القوامة فهي مسئولية رعاية المرأة في وقت ما كـان يمكن للنسـاء أن يقمن بها، وأحاط الرسول النساء بكرامة خاصة وقال الرسـول أنه لو كـان مفضـلاً أحدًا لفضل النساء، وجعل الجنة تحت أقدام الأمهات إلى آخر ما هو معـروف وما كـان موضوعًا لعدد كبير من الكتب.

واعتبر الإسلام "بني آدم" سواء لا تفصل بينهم حواجز اللون أو العنصر أو اللغة إلخ.. وأي شيء أجمل من الآية **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ** فانظر إلى الإعجاز الذي جعل هذه الكلمات الموجزة تستبعد الفروق العرقية وتساوي بين الذكر والأنثى وتجعل الأفضلية للتقوى. وتأمر بالتعارف بين الشعوب بعضها بعضًا.

وفي المجتمع الإسلامي أيام الرسول كان صهيب الرومي، وبلال الحبشي وسلمان الفارسي، كما كان العبيد الذي حررهم أبو بكر وغيرهم يكونون جميعًا أسرة واحدة يعاملون جميعًا على قدم المساواة ولا يتفاضلون إلا بالعمل والتقوى إلى درجة تمني فيها عمر "لو كان سالم (وهو مولى أبي حذيفة) حيًا لأوصي له بالخلافة. وعندما طعن في المسجد أمر صهيب بأن يؤم الناس.

ويعرض القرآن الكريم الإنسان كما خلقه الله بضعفه وقوته بفجوره وتقواه وتحدث عن الضعف البشري.. **وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا** وقد بدأ هذا الضعف في آدم ثم تطرق إلى البشر عامة، بما في ذلك الأنبياء أنفسهم فيما لم يكلفوا بتبليغه فقال عن

---

[13] (?) انظر تفصيل ذلك في " نحو فقه جديد " – جمال البنا ح 3 ص 26

آدم: ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ وعن سليمان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ وقال عن يوسف: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ وروى عن موسى: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ وقال عن ذي النون: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ وقال عن محمد ﷺ: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً. إِذًا لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[14].

ولم ينف القـرآن وهو بصـدد الحـديث عن المؤمـنين احتمـال وقـوعهم في خطأ أو استسـلامهم لضـعف. وقد رضي منهم أن لا يقعـوا في ﴿ كَبَـائِرَ الإِثْمِ وَالْفَـوَاحِشَ﴾ دون اللمم الــذي قــال عنه أبو هريــرة إنه كل ما دون الجمــاع وافــترض سـياق الآية وقوعهم فيها، ووعد القرآن المؤمنين بأن يكفر عنهم سيئاتهم عند التقوى والإنابة وقال النبي ﷺ " كل بني آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون.

وقال "أيها الناس إنكم لن تفعلوا ولن تطيقوا كل ما أمرتم به، ولكن سددوا وبشروا "

وصور لنا القرآن أثر الوازع المادي، وهو يقرن الأموال بالأولاد، بل هو يقدم الأموال على الأولاد. ويشير في أكثر من سورة إلى حب المال الذي يتملك قلب الإنسان "إنه لحب الخير لشديد" "ولا تحبون المال حبًا جما" ويلمس الضراوة التي يثيرها في النفس جمع المال واكتنازه وما يخالجها من اعتزاز وإسراف وطغيان، ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآَهُ اسْتَغْنَى ﴾ وكيف يلهي المال الناس عن كل شيء حتى تفاجئهم القبور ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرِ ﴾ وهو يبدي ملاحظة دقيقة: أن إحساس الغنى المفرط بثروته واعتزازه بماله. واعتقاده بقوته السحرية يصل إلى الدرجة التي يعتقد فيها أن المال سيهبه الخلود. وسيقربه إلى الله. وسيعفيه من السؤال والعقاب الذي يطبق على الفقراء، بل يعفيه من المسئولية كلها ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

إن القرآن الكريم وإن كان يندد أشد تنديد بهذه النماذج من الناس، فإنه في الـوقت نفسه يقرر أنهم موجودون، ولا يوجب عقوبة دنيوية عليهم باستثناء ما أمر به من زكاة وما أوصى به من إنفاق.

والحق أن هذا هو جزء من الخط الرئيسي الذي يضعه القرآن أمام " الضعف البشري " الذي يدفع البعض لتفضيل الدنيا على الآخرة – فهو يعترف بوجودهم وأن الله تعالى لا يحرمهم، بل هو يعجل لهم ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا

[14] (?) لا تجهل بالطبع ما تقوله التفاسير، ولكن يأبى السياق ذلك.

نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا. كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء 18 – 20).

وهو كذلك يتحدث عن المؤمنين الذين يغلبهم الضـعف في بعض الحـالات فـيرتكبون فاحشة فــإذا اســتغفروا غفر الله لهم ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُــوا فَاحِشَــةً أَوْ ظَلَمُــوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ إِلاَّ اللـهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (آل عمران ـ 135).

﴿ **وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِـرُونَ** ﴾ (الشورى ـ 37).

﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَــنَ مَا عَمِلُــوا وَنَتَجَـاوَزُ عَن سَـيِّئَاتِهِمْ** ﴾ (الأحقاف ـ 16)

ففي هذه الآيات جميعًا نجد النهي عن " كبائر الإثم والفواحش " أما ما هو دون ذلك فإن الله تعالى يتجاوز عنه، وما يزيد عن ذلك يجبه الاستغفار والتوبة.

هذا التصوير من القرآن للإنسان لابد وأن يؤدي إلى وجود "تعددية" ولابد أن تتجلى عواطف هذا الإنسان ومشاعره في فنون وآداب " يمكن أن تشبع ميله الغريزي من غناء أو رقص أو موسيقى إلخ.. ولا يعد مع هذا خارجًا عن الإطار الذي وضعه القرآن للإنسان.

ولكن صورة "الإنسان القرآني" لا توجد في التراث الفقهي أو الدعوات الإسلامية التي أبدعت إنسانها الخاص بها "الإنسان الفقهاني" إذا جاز التعبير، كم أبدع الرأسماليون "الإنسان الاقتصادي" الذي لا يعمل أو يتحرك إلا بوازع الربح، والإنسان الفقهاني يختلف تمامًا عن الإنسان القرآني، فهو الإنسان الذي أسلم أمره للفقهاء، فملئوا نفسه رعبًا وذعرًا من الإثم والذنوب وجعلوا هاجسه الأول هو كيف يتقي الوقوع فيها فهو قبل أن يقدم على شيء أو يتخذ قرارًا يستفتى ويتأكد من سلامة و "حلية" هذا الإجراء وأعانه الفقهاء على هذا بإقامة سد عال يحول بينه وبين كل ما يظن فيه أو يشتم منه الحرمة بقاعدة سد الذرائع وهي "صوبة" يترعرع في ظلها الإنسان الفقهاني ولكن ما أن ترفع عنه حتى يذهب به عصف الرياح وأشعة الشمس.

وواضح تمامًا أن هذه السياسة تناقض سياسة القرآن التي أوردنا الشواهد عليها من الآيات العديدة كما تخالف سياسة الرسول الذي ارتأى أن الصلاة تجب السيئات، وقال كتب على بني آدم حظه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر والأذنان ذناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناهما البطش والرجل زناها الخطي، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه " رواه البخاري مختصرًا ورمز له صاحب فيض القدير بالصحة ودعوة الإحياء الإسلامي تأخذ الإنسان كما صوره القرآن

والرسول لا كما أراد له الفقهاء – وبالتالي فإنها ترى في شتي مظاهر الحرية التي يمارسها الإنسان أمرًا مقررًا، وطبيعيًا وهي لا تدين هذه الحرية لأن الإسلام جعل التعامل معها رهن بصاحبها فإذا كان فيها ما يظن به مخالفة للإسلام فقد يستغفر، أو يتوب وستجب التوبة والاستغفار ما يظن أنه يجاف آداب الإسلام كما قد يصر عليه ويمضي على غلوائه، وفي هذه الحالة فإن الله تعالى سيتولى محاسبته يوم الحساب وليس هناك ما هو أصرح ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا** ﴾ (الإسراء 18) والقرآن لم يحدد عقوبة على ما ينزلق إليه الضعف ولكن على الشر كالسرقة والظلم، أو إذا اشتط الضعف البشري بصاحبه إلى الاغتصاب – وهي الموبقة العظمى.

والهدف من هذا هو تحرير الإنسان من وصاية تحكم الآخرين الذين لا يسيغون ما يقوم به البعض فينصبون أنفسهم قضاة، وإذا سمح بمثل هذا فلن توجد حرية في المجتمع، ولا كرامة للفرد، فلنترك ما لا نوافق عليه لصاحبه، ونعرف أن له حقًا، كما أن لنا حقنا في انتهاج ما نريد، وسيحاسبنا الله جميعًا يوم القيامة، فضلاً عن أن المسلك السلبي المجتمع سيسهم في الحكم على التصرفات لأنه عندما يعزف عن تصرف ما، فإن هذا سيؤدي إلى انحسار هذا التصرف، وهذا العزوف السلبي حق للرد لا يمكن أن ينكره عليه أحد وهو يكفي وحده للحكم على التصرفات ووجوه النشاط التي يقوم بها البعض.

ومرة أخرى فإن الحكمة التي قد تدق على مدارك الذين يعطون أنفسهم سلطة التحريم والتحليل هي أن إطلاق حريات الأفراد وإفساح المجال للمبادءات سيؤدي إلى فتح أفاق جديدة أمام المجتمع ولا جدال في أن القرآن والرسول أدركا هذا في حين أنه دق على الفقهاء.

ومن هنا، فيجب ألا نتصور أن المجتمع الإسلامي لابد وأن يبرأ من وقوع ما يجاوز الآداب الإسلامية. فما دام هناك إنسان، فلابد أن يظهر شيء من فجور هذا الإنسان – أو ابتغائه حرث الدنيا – وقد وكل الله الحكم فيها إليه يوم الأخيرة وليس هذا إلا نتيجة منطقية لطبيعة كما خلقه الله، ولو لم توجد هذه التجاوزات ففيم تحدث التوبة والاستغفار؟ ولمن يوجه "النهي عن المنكر"؟ إن مجرد الوجود والحدوث يجب أن يعد أمرًا طبيعيًا ومنطقيًا، وليس معنى هذا الاستسلام له ولكن مجابهته بالحكم والموعظة الحسنة، وكل واحد ميسر لما خلق له.. ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى. وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى**﴾.

ثالثًا: الزمان:

في الزمـان يصل تجاهل الـدعوات الإسـلامية إلى غايتـه، لأن عـاملين تضـافرا على ذلك.

العامل الأول العاطفية التي تجعل الدعوات الإسلامية ماضوية حتى النخاع، تتمنى لو ترد إلى أحد القرون الثلاثة التي قيل عنها إنها أفضل القرون.

والعامل الثاني غلبة النظرية والنصوصية عليها، وهي بطبيعتها جامدة، مجردة، فمرور ألف عام وتطور أساليب الحياة تطورًا مذهلاً لا يعني شيئًا من قريب أو بعيد بالنسبة لما قرره الفقهاء واكتسب منزلة النص المقدس..

وأدى تضافر هذين العاملين لأن ينعدم في الدعوة الإسلامية الإحساس بالزمان فأتباعها يعيشون هذا العصر يستخدمون مبتكراته من السيارات والطيارات والتليفون والتليفزيون كأنما خلقت كالخيل والبغال والحمير. فهم موجودون بحكم ميلادهم في هذا العصر، ولكنهم لا يعايشون العصر، أو يتفاعلون معه لأن روحهم ومثلهم وخيالاتهم في الماضي البعيد.

ولا ينفي هذا أن يوجد بين أعضاء بعض الدعوات الإسلامية أطباء بارزون ومهندسون حاذقون إلخ.. فهؤلاء يتقنون مهنتهم إتقانًا فنيًا، ولديهم الأمانة والخلق، ولكنهم إذا جاوزوا دائرة تخصصهم المهني تاهوا وحتى لا يحدث هذا أقامت الدعوات الإسلامية حولهم سورًا يفصل بينهم وبين عالم العصر، فعاشوا داخل هذا السور آمنين مطمئنين بعيدين عن معمعة الحياة وغمرات الدنيا، ولا يفكر واحد منهم في أن يحقق اكتشافًا أو اختراعًا رغم أن لدى بعضهم التأسيس الفني الذي يسمح بالانطلاق لو وجدت الروح ولكن هذه الروح لا توجد. إذ وراء كل اكتشاف أو اختراع طموح وطلعة ورغبة في إثراء الحياة وهذه كلها غير موجودة لديهم.

ومن هنا فلم نجد العالم المسلم الذي يقدم إضافة منشئة في علوم الطبيعة والكيمياء والطب والهندسة رغم أن الكثيرين ممن يعملون في هذه المجالات، ويحكمونها فنيًا ومهنيًا ممن انضم إلى الإخوان المسلمين عندما كانوا طلابًا في الجامعة وحافظوا على عضويتهم فيها وكانوا من أبرز أعضائها، وهذه هي جناية التكييف الدَعَوي والفقهي على عقليتهم التي جعلتهم مهنيين أكفاء أمناء، وفي الوقت نفسه طمست ملكة الطموح والإبداع والابتكار والتوق إلى الجديد.

إن الزمان هو أبرز أبعاد الحياة، فلا يمكن تصور الحياة إلا في إطار الزمان وتوالي الشهور والأعوام هو الذي يجعل من الطفل الذي يحبوا على أربع صبيًا ثم شابًا ثم رجلاً مكتمل الرجولة ثم يبدأ سلم النزول فيعلوه الشيب ويبلغ أرذل العمر، ولو جاز أن يقف الزمان بالطفل وهو يحبوا. لما أمكن له أن ينمو ويصبح بعد بضعة سنوات صبي ثم شابًا ثم شيخًا إلخ..

إن هذا لا يحدث. لأن الزمان لا يتوق ولن يتوقف إلا عندما تنتهي هذه الحياة الدنيا، ومع هذا فإن من لم يعايش الزمان ويتفاعل معه – يمكن أن يظل نفسيًا وعقليًا في

طفولة وأمية حتى وإن بلغ الثلاثين فقد نما الجسم بفعل الزمان بينما وقف الفكر؛ لأنه لم يزود بمعارف العصر..

ويعبر القرآن الكريم عن أهمية الزمان عندما ينسب الشعوب القديمة إلى قرونها فيقول:

- ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا** ﴾ (13 يونس)
- ﴿ **فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ** ﴾ (116 هود)
- ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ** (17) ﴾ الإسراء)
- ﴿ **قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى** ﴾ (51 طه)

وأمثال هذه الآيات كثيرة وعديدة

وقد وضع الإسلام تقسيمًا موقوتًا لليوم عندما جعل الصلوات خمسًا كل واحدة تبدأ مع مرحلة معينة بدءًا من الفجر.. حتى غروب الشمس وكأن تلك الصلوات هي ساعة الجماهير قبل أن تخترع الساعة وكان يمكن التوصل إلى درجة معقولة من دقة التوقيت بفضلها؛ لأن هذه الصلوات الخمس تنتظم اليوم.

وزماننا يعد زمن عجيب، فخلال القرون الثلاثة الأخيرة قفزت البشرية في الفكر، والعلم، والمادة قفزات لم يتصورها الإنسان إلا في مثل ألف ليلة وليلة وسيف بن ذي يزن. فقد تحدث هؤلاء عن حكماء يطيرون.. وعن سحر يغير الطبائع. وعن علي بابا الذي ما إن يقول " افتح يا سمسم " حتى يفتح بابا المغارة..

إن اختراعات العصر فاقت كل هذا، ولم يعد علي بابا بحاجة لأن يأمر.. لأن الباب سيفتح من تلقاء نفسه ما دام هو على خطوات منه.

لقد أعطى العصر الحديث للإنسان ما لم يؤته إلا سليمان.. كمعجزة لا كممارسة.. وأدى إعمال العقل وانفساح الزمان الحضارة لتصل من الشرق إلى الغرب في غمضة عين وأوجد تلك التحديات التي أشير إليها في "استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن الواحد والعشرين " وأبرزها القوة الباهرة اقتصاديًا وعسكريًا نتيجة لاستخدام العلوم في الصناعة، والتقدم الاجتماعي القائم على الحرية..

في العصور القديمة كان العنصر الأكثر تأثيرًا في المجتمع هو " المكان " لأن الناس كانوا مربوطين إليه، وخاضعين له، فلا يستطيعون تركه لصعوبة وسائل الاتصال، ولعدم المعرفة بما وراءه كما لم تكن وسائل " تكييف الجو " أو تعبيد الطرق إلخ ميسرة فكان الناس تحت رحمة المكان، ولكن العصر الحديث غير هذه الصورة بحيث ظهر " الزمان " وما يمثله من تطور، واختراع واكتشاف وتيسير للمواصلات وإبداع لوسائل تكييف إلخ.. بحيث فقد المكان أهميته، ثم جاء الطيران فأصبح الانتقال يتم في السماوات العُلا، وفوق السحاب، وظهرت الأقمار الصناعية والإذاعات المرئية والمسموعة التي لا يمكن لأي قوة حجبها فتلاشت الحدود، وأصبح العامل الأكثر أهمية وتأثيرًا في حياة الناس هو الزمان، وخضع المكان لسطوة الزمان. فقد يكون شخص ما في أدغال خط الاستواء ومع هذا يكون بيته مكيفًا، وبه الثلاجة، وكل المعدات الحديثة وتأتي الطائرة لتنقل صاحبه من حر خط الاستواء إلى جليد أوروبا وهكذا فقد المكان آثاره وأصبح الإنسان هو الإنسان " الزماني " وهو ما يوضح لنا جريمة تجاهل الزمان. فإن من يتجاهله ينفي نفسه من عالم العصر.

ولم تكفِ الكرة الأرضية بأسرها همة أوروبا، فانطلقت تراود الفضاء وأرست سفنها على القمر بينما انطلقت الصواريخ تسير نحو الكواكب البعيدة الأخرى.

وليس في هذا كله ما يرفضه الإسلام. فهذا عمل ومعرفة وبحث وإقدام وكلها فضائل:

وقد يكون مما جعل المسلمين المعاصرين يعزفون عن التجاوب مع العصر الحديث أنه اقترن بالحضارة الأوروبية التي اتسمت بالشراسة والقسوة ونهبت العالم القديم واستعبدت سكانه وفرضت حكمها على أراضيه وارتكبت موبقات لا حصر لها، ومنذ أن ظهر الإسلام وقد نصبت نفسها عدو له..

ولا جدال في أن تاريخها السياسي والاقتصادي بالنسبة لدول آسيا وأفريقيا اتسم بالإجرام وكان سلسلة من الموبقات.

ونحن لا نبرئها، بل قد يأتي اليوم الذي نحاسبها وقد نطالبها بالتعويض أو الاعتذار.

ولكن ليس هذا هو المهم. المهم هو أن ندرس هذه الحضارة دراسة عميقة للتعرف على نقط القوة والإبداع فيها، وهي عديدة، ولنعرف أيضًا نقط القصور وبقدر ما تكون هذه الدراسة عميقة وموضوعية بقدر ما تزداد مكانتها، لأنها ستمكنها من الأخذ بنقط القوة وتفادي نقط القصور، أما أن نقف موقف التجاهل، أو أن نضخم في نقط الضعف ونضائل في نقط القوة فلن يكون إلا تغريرًا ومغالطة تجني في النهاية على أصحابها.

ويجب أن نعلم أن الحضارة الأوروبية وإن كانت في أغلبيتها العظمى أوروبية، إلا أنها تضمنت أثارًا لبقية شعوب العالم فيها ولقد أثبت " برنال " في كتابه " أثينا السوداء " مدى التأثير الطاغي للحضارة المصرية القديمة على اليونان.

ونجد أثارًا للحضارة الإسلامية انتقلت إلى أوروبا في عهد " الرينسانس " طريق أسبانيا وصقلية وظلت كتابات العلماء المسلمين تدرس في أوربا حتى القرن الخامس عشر والسادس عشر، وقد استفاد الأوروبيون منها أكثر مما استفاد بها أصحابها لأن أوروبا كانت متعطشة للمعرفة، وتوجد فيها " جيوب " حرة، بينما كان الشرق قد وقع في أيد الطغاة، والعلم لا يزدهر إلا في البيئة الحرة، وهي الصورة التي تتكرر الآن، فإن العلماء الأفريقيين والآسيويين يشغلون في معاهد البحوث الأوروبية والأمريكية مكانًا مرموقًا وتفيد منهم هذه الدول. وكانت دولهم أحق بهم لولا نظم الحكم الطاغية وانعدام الحريات.

ويجب أن يكون الإسلاميون هم السباقون في دراسة الأوروبية لأن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنا وجدها، ويجب أن لا تلفتنا العداوات القديمة عن ذلك ﴿ **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا.. اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾.

ولي لنا خيار بعد، لأن الحقيقة الواقعة التي تفرض نفسها علينا فرضًا هي أننا نعيش في عصر الحضارة الأوروبية، وفي غابتها أيضًا، وقد وصلت هذه الحضارة إلى ما لم تصل إلي أية حضارة أخرى في العالم القديم بما في ذلك الحضارة الرومانية في عهد أكتافيوس أو الحضارة الإسلامية في عهد هارون الرشيد. فقد زحفت على كل العالم بلا استثناء ووضعت النظم والطرق لحياة المجتمع الحديث من فنادق وخطوط طيران، وبناء المدن والبيوت والإضاءة والصرف الصحي وأصبح ما وضعته في هذا كله هو " المعيار " وهو ما لا تشذ عنه دوله. فسواء كنت في الصين أو أفريقيا أو آسيا أو حتى المدينة المنورة إلخ.. فستجد الفنادق على مثال هيلتون وشيراتون وحياه أجانس، وستنقلك طائرات بوينج وإيربس وستجد المطاعم التي تقدم الأطعمة الأوروبية مكتوبة بإحدى لغاتها. أما عن الفنون والآداب والسينما والمسارح وطرق الاستمتاع فحدث عنها ولا حرج..

وراء هذا كله عمل دائب في المناجم والمصانع، ودراسات عميقة في مراكز الأبحاث وجيوش جرارة من العمال، والباحثين يعكفون على كل شيء وملايين من العاملين في صمت يعملون لسير هذا المجتمع وضمان سلامته.

وقد تفجرت ثورة المعرفة بحيث أصبح يطبع في اليوم الواحد 2000 كتاب وتظهر كل سنة 40 ألف كلمة علمية جديدة ومليون مقال علمي على صفحات ستين ألف مجلة متخصصة.

وظهر كومبيوتر يقوم بمليار و 200 مليون عملية في الدقيقة، كما أصبح ممكنًا تخزين 275 ألف صفحة على سنتيمترين، وأمكن ملاحقة الزمن إلى درجة مليون من الثانية بفضل ما توصل إليه العالم المصري أحمد زويل.

ولا تزال " صورايخ " المعرفة منطلقة من قواعدها (مراكز البحوث) في اليابان والولايات المتحدة وألمانيا وبقية دول العالم المتقدمة.

هذه الإنجازات كلها هي بعض ما تقدمه الحضارة الأوروبية متلبسة ثوب الزمان، وما يكون علينا ملاحقتها بقدر ما نستطيع إلا إذا قبلنا الدنية أو أن نكون في وضع التبعية الذليل. ولن يثمر التجاهل إلا زيادة شقة التخلف وتدهور الوضع لأننا لا يمكن أن ننعزل بأنفسنا ونحميها من آثاره التي تتنزل علينا من السماوات المفتوحة، وقد أراد لنا الإسلام العزة والمنعة والكرامة. ولن يتحقق لنا شيء من ذلك ما لم نطرح السلبية ونعمل لكي نعايش هذا التقدم العلمي المذهل بقدر ما نستطيع، حتى لو كرهناه فلم يعد لنا خيار.

وأما الفنون والآداب التي تأتي بها حضارة العصر فهي جانب من جوانب وفيها السامي والوضيع، ما يلمس أنبل المشاعر، وما يرضي أرذل الشهوات وقد فرضت نفسها علينا فرضًا مع ظهور القنوات الفضائية وشيوع البث المباشر من مختلف دول العالم على أنه لا يستطيع أحد أن يفرض على مسلم تقي مشاهدة فنون هابطة أو متحللة " وإذا كان التليفزيون يعرضها فإنه بلمسة يد يمكن أن يحول القناة إلى قناة تتلو القرآن أو تقدم المحاضرات. إما أن يطالب بالمنع والمصادرة ويستنزل اللعنات على أصحابها فليس هذا هو الحل الممكن ولا هو بالحل الأمثل. الحل الأمثل هو ما اهتدى إليه " سلامة القس " عندما قال:

قد كنت أعزل في السـفاهة أهلها　　　فأعجب لما تأتي به الأيـــــام

فاليـــــوم أعذرهم وأعلم أنما　　　ســــبل الضلالة والهدى أقسام

وليتأسى بالرسول الذي كان يرفض اللعن ويسأل الهداية.

- 6 -
موقف دعوة الإحياء من بعض القضايا

إن الكلمات السابقة، سواء في استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن الواحد والعشرين، أو ما جاء خاصًا بالدعوة في فصول سابقة، أو لاحقة في الفصل التالي عن " مكتبة دعوة الإحياء " هذه كلها تعطي القارئ فكرة كافية إلى حد كبير عن نظرية الدعوة ومواقفها، ولكننا من باب التخصيص ولإراحة القارئ، فسنعرض هنا تحديدًا لموقف الدعوة من بعض القضايا في سطور قليلة دون شرح أو إسهاب، فليس هذا مجاله.

1- الثوابت:

قضية الثوابت قضية هامة، لأن الكثيرين يعترفون بحرية فكر أو اجتهاد " إلا في الثبوت " فإذا سألنا عن الثوابت أتضح أنها سلسلة من المواضيع بعضها أخذ برقاب بعض بحيث تشمل الإسلام بأسره، وليس الثوابت هي:

بالنسبة لنا فإن الثوابت هي:

1-ذات الله تعالى وطبيعته فهذه ما لا يمكن للعقل البشري أن يصل إليها، وأي محاولة لذلك تزج بالإنسان إلى غير طائل بل تسلمه إلى الضلال، ونحن نرفض مجرد التفكير فيها، ونأخذها كما عرضها القرآن ولا نلحق بها ما يضيفونه إليها من أحاديث أو من تأويلات خاصة لآيات الصفات التي مزقت المسلمين، وكان لهم عن هذا مندوحة فالقرآن الكريم تحدث عن اليد فقال: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ (46 سبا)، وقال: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾ (31 سبا) فهل يمكن القول إن للعذاب يدًا، أو للقرآن يدًا لا تشبه أيدي الناس كما يقول الوهابيون.. وهذا أكبر دليل على خطأ الاجتهاد فيما يتعلق بالله تعالى فإن هذا الاجتهاد كاد أن يصلهم بالمجسمة.

ومن الناحية المقابلة، فنحن نستبعد الأخذ بأسلوب علم الكلام للاستدلال على وجود الله أو إثبات صفاته، فهو أسلوب غريب على روح الإسلام لأنه يعود إلى روح فلسفات لا تؤمن بالله أصلاً، أو لا تؤمن به الإيمان الإسلامي ولذلك تصدر أحكامها على الله تعالى من منطلق فهمها الإنساني، وقد قلنا إن الفهم الإنساني يعجز عن الولوج إلى هذه المنطقة أصلاً، وقد تطرقت إلى علماء الكلام هذه النظرة دون أن يشعروا، وإلا فما معنى كلام كلمة الجويني، إن من المستحيل على الله " أن يريد ما لا يعلمه " فهل هناك شيء لا يعلمه الله والله يقول " إنه بكل شيء عليم " أو مما حكات الغزالي في " كن فيكون " وأمثالها فهذه كلها مما لا نعلق عليه أو نأبه له، لأن قدرة الله تعالى وعلمه مما لا يمكن أن تحيط بها العقول أو تدركه الأفهام فلا يمكننا الحكم عليها.

ولا نجد في قضية القضاء والقدر وجبر الإنسان أو اختياره أي مشكلة لأنها تتعلق بعلم الله الذي لا يستطيع أن نحده ونخطئ لو حكمنا عليه بعلمنا ولأن المشيئة الإلهية، وإن كانت مطلقة شاملة ودون قيد أو شرط، ومما لا يمكن أن نحيط بأقطارها، فإنه تعالى – بالنسبة للأرض والإنسان ولمجتمعه بلور مشيئته في سنن ومبادئ " كتبها على نفسه " بتعبير القرآن، وجعلها هي المناط في تسيير هذا الكون وليس هناك ما هو

أصرح من الآية **وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا** " فقد ربط ما بين **مشيئته** والأجل " وكذلك **لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** فربط مشيئته بتصرف القوم أولا. وندد القرآن بالذين قالوا **لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** .

وفي عديد من الآيات أوضح القرآن أن الله تعالى خلق في الإنسان عقلاً يميز بين الحسن والقبيح وأرسل إليه الأنبياء، وأنزل معهم الكتب المقدسة ليعرفه على الخير والشر، وليستكمل له ما يعجز العقل عنه، ومنحه إرادة حرة يختار بها ما يشاء وهو يثيبه إذا أحسن الاختيار، ويعاقبه إذا أساء. أما كيفية علاقة هذا بعلم الله تعالى السابقة وكيف تتلاءم الحرية مع علمه فهذا ما لا نشغل أنفسنا به، لأننا لا نحيط به.. فلله تعالى قدرات وقوى إلخ.. أعظم بمراحل مما نتصور، وتختلف تمامًا عما نعرفه.. وكل الانحرافات والتعسفات في العقيدة إنما جاءت من ما محاولة الحكم على الله تعالى بمقتضى الفهم الإنساني.. مع أنه تعالى قال: **فَلاَ تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ** وأي محاولة للاختراق لا بد وأن تنتهي بالضلال والانحراف.

2-يلحق بذات الله تعالى عالم الغيب،. بدءًا من الموت حتى الدخول في جنة أو نار. فنحن نؤمن بها كما جاءت في القرآن، ولا نضيف عليها ما جاء في معظم الأحاديث لأن عالم الغيب هو مما استأثر الله به ومن ثم فلا يكون موضوعًا لأحاديث تعلن على الناس، ونحن لا نجهد أنفسنا في تحقيق تفاصيل ما جاء في القرآن عنه لأن ما أراده القرآن هو الانطباع العام، ولكننا لا نستبعد أن يكون معظم ما جاء عنه هو باب المجاز الذي يؤثره القرآن عند الحديث عن هذه المجالات ليتحقق الصدق الفني الذي يلجأ إليه لتكثيف المعنى كما نقول هو بحر في السخاء، وأسد في الشجاعة، وليس هو بحرًا، ولا أسدًا، ولكن رجلاً.. ولكننا ندع لكل واحد أن يفهم ما يطمئن إليه فؤاده دون محاجاة، أو محاولة لحمل الآخرين على الأخذ به.

3-القرآن الكريم، نؤمن بأن القرآن الكريم هو توجيه الله تعالى الذي أوحى به إلى الرسول، ونحن نقبله ونرى أنه الحق الذي لا يتطرق إليه باطل، ونستبعد كل ما حشيت به التفاسير وما أورده بعض الأسلاف من أقوال تحذف أو تضيف، كما نستبعد النسخ في القرآن ونرى أن كل من يمسك بآية فإنه يمسك بحجة طبقًا للسياق، ونستبعد أسباب النزول ولا نرى لها حاجة إلا التطفل على النص وإيجاد إيحاءات مضللة رغم القول إن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب.

ولا يعني تقديسنا للقرآن واعتباره من الثوابت أن لا نعمل الفكر فيه، لأن هذا هو ما يوجبه القرآن نفسه علينا، والنظر في القرآن ككل هو ما يقربنا إلى روح القرآن ومضامينه العامة التي نستلهمها في وضع القواعد واستنباط الأحكام مما قد يجعلنا نُجمد نصًا لأن العلة التي وضع لأجلها انتهت وهو ما تنبه له عمر بن الخطاب في بعض اجتهاداته.

وبالطبع فنحن لا نعتبر تفسيرات المفسرين من الثوابت، بل نرى إنها شغلت الفكر بتفاصيل وحكايات ملفقة بعيدة عن اللب والجوهر في القرآن، وبهذا أساءت إليه وجنت عليه.

ونحن لا نعتبر أن من الثوابت أحكام المذاهب وأقوال الفقهاء، بل حتى أقوال وأعمال الصحابة بما فيهم الخلفاء الراشدين، إننا قد نستأنس بها ولكننا لا نراها من الثوابت الملزمة " وانظر ما جاء عن القرآن في فصل الركائز الثلاث لدعوة الإحياء الإسلامي ".

4- السنة: تعد السنة أيضًا من الثوابت بعد ضبطها القرآن ولئن كان هذا سيجعلنا نتوقف أمام العديد من الأحاديث التي تضمنتها المسانيد وكتب الصحاح (بما في

ذلك صحيحا البخاري ومسلم) فإننا من ناحية مقابلة نأخذ بما أعتبره الفقهاء ليس تشريعًا من السنة مثل المبادئ والممارسات التي أرساها الرسول كقائد جيش ورئيس دولة كما أن شخصية الرسول تستأثر لدى دعوة الإحياء الإسلامي بأهمية كبرى وتظل خالدة دائمًا. إن القرآن عند قال: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ فإنه كان يرسي مبدءًا من أهم المبادئ وأكثره تأثيرًا في الحياة والمجتمع – هو الأسوة والقدوة – وهو مبدأ لا تشير إليه الكتابات الأوروبية التي تعني بالنظم والسياسات في حين أنه يمكن أن يغني عما يضعونه من ضمانات وما يستهدفونه من غايات.

هـ ـ ومن الثوابت الشعائر العبادية التي فرضها الله وهي الصلوات الخمس كل يوم، وصيام رمضان شهرًا في السنة، والزكاة كل عام، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً مرة واحدة..

وهذه هي العبادات التي يجب أن يقوم بها المسلم قيامًا حسنًا فيه النية وفيه الخشوع وحضور القلب. أما السنن والنوافل سواء كانت في الصلاة، أو الصيام أو الحج والعمرة، فمن الخير أن يدخر المسلم وقته وجهده لما أصبح أكثر أهمية من عمل في القضية العامة.

وعليه أن لا تتملكه الأنانية فيركز كل جهده لإنقاذ نفسه من النار، لأن عليه واجبًا لإنقاذ إخوانه الذين هم في أمس حاجة للمساعدة. فتعليم أمي وفتح آفاق الثقافة والمعرفة أمامه أجدى عند الله وأفيد للمسلمين من أداء النوافل، وإنفاق على محتاجين أو توظيف أو تزويج شباب أفضل من حجة وعمرة بعد عمرة إلخ..

حقًا إن الرسول كان يقوم بالليل ويصوم بالنهار ولكن هذا إنما كان لأنه الرسول الذي اصطفاه الله وأنعم عليه بما لم ينعم على أحد من العالمين وخلد ذكره وجعل اسمه يتردد في أربعة أركان العالم خمس مرات في اليوم مع الآذان. وهذا فضل ومِّنة لا يفي بها أن يقوم الرسول الليل كله وأن يصلي النهار كله. ولكنه مع هذا كان يخصص لأهله ولقومه الوقت الكافي، فمن القياس الخاطئ أن يسوى بعض الناس ما بينهم وبين الرسول في عبادته، وفيما يتقرب به إلى الله، لأنهم لا يظفرون بما ظفر به الرسول من الشرف الرفيع ويكفيهم أداء الفروض ومثلهم مثل الأعرابي الذي جاء للرسول وسأله عما عليه فلما أجابه رد بأنه سيفعلها " ولا يزيد عليها " فقال الرسول " أفلح إن صدق " ونحن نقنع بهذا الفلاح ونوجه طاقاتنا لأداء الواجبات العديدة التي تزحم المسلم المعاصر نحو نفسه، وأهله، ووطنه..

ولرب قائل يقول " هل تحجر على مشاعر الذين يجدون نفوسهم تهفو للصلاة، ويحسون الطمأنينة والراحة وهم يتهجدون بالليل؟ فنقول نحن لا نحجر على من يستشعر هذا أن يقوم بما يشاء من تهجد وصلاة ولكننا نتحدث عن عامة الناس، ومن ناحية المبدأ أما بالنسبة للآحاد، فلكل أن يتبع ما يتفق مع نفسه ولكننا نفضل ما ذهبنا إليه للعامة تخفيفًا عنهم وحرصًا على الأولويات.

وعندما أوجب الإسلام أداء هذه الشعائر والعبادات، فإنه في الوقت نفسه أوجد تيسيرات ورخصًا مثل الجمع بين الصلاتين في الحضر عند الضرورة ومثل المسح على الجوربين، والتيمم عند انعدام الماء، والإفطار للسفر وإفطار المسن الذي لا يطيق الصيام وبعض هذه التيسيرات مما جاء به القرآن الكريم والآخر مما جاءت به السنة. ونحن نأخذ بها لأن الرسول رحمة للعالمين ﴿ **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** ﴾ ﴿ **لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأمْرِ لَعَنِتُّمْ** ﴾ ولأن التيسير أصل من أصول الإسلام فليس في الأخذ بهذه الرخص شبهة.

بعد هذا كله إذا فات فرد أداء بعض هذه الواجبات فهناك صور عديدة لإصلاح هذا مثل الاستغفار وعمل الصالحات والإنفاق والتوبة – وهي ممارسات تصلح لتعويض ما قد يطرأ لأحد فيؤدي إلى عدم قيامه بأحد الفروض دون تمييز، بمعنى أن ذلك ينطبق

على الصلاة أيضًا، فإن القداسة الخاصة للصلاة ليست أعلى من التوبة والاستغفار وفعل الحسنات.

2- الفنون والآداب:

الفنون والآداب تعبير عن النفس الإنسانية وما ألهمها الله من فجور وتقوى، وهي بهذا المعنى تمت إلى الإنسان، وهي من " حرث الدنيا " الذي لم يمنع الله عطاءه عنه ولم يفرض عليه عقوبة. وإنما أخر الحكم فيه إلى يوم القيامة.

ومن هنا يتضح خطأ القول بأن هناك فنونًا غير إسلامية، إن الفنون جميعًا إنسانية فيها نبل الإنسان وسموه كما أن فيها فجوره وشهواته وما نُبل وسما فإنه يتفق مع قيم الإسلام. أما ما انحط وسفل منها فإنه يجافي قيم الإسلام، ولكنه في الوقت نفسه ليس إلا انبعاثًا من النفس الإنسانية كما وضعها الله وبث فيها التقوى والفجور، وللمؤمنين الذين يضيقون بأنماط منها أن يعتبروها امتحانًا لصلابتهم ولا يكون الامتحان بالقضاء عليه أو بإزالته ولكن بالنجاح فيه والانتصار عليه..

في نظرنا أن الإسلام لا يحصر الفنون في المجالات الإسلامية على وجه التعيين ولكنه ينظر إليها كانعكاسات وتجليات للنفس الإنسانية بما غرسه الله فيها من فجور وتقوى، وبالتالي فإن الحساب عليها يكون تبعًا للاعتبارات العمومية التي يمتزج فيها المجتمع وأوضاعه بالفرد وميوله. ولا يمكن حسابها حساب الفعل البسيط المجرد، ومن ثم فإن الله تعالى أوكل الحساب عليها إليه يوم القيامة. ومعنى هذا أن تكون نظرتنا إليها تبعًا للاعتبارات الاجتماعية وليست الإسلامية التي سيتولى الله الحساب عليها..

ولعلنا نذكر في هذا الصدد أن الإسلام لم يتنكر للغريزة الجنسية التي يمكن أن تكون في أصل كثير من الفنون والآداب وغيرها. ولكنه اعترف وعمل لتنظيمها ولاحظ في هذا قدرًا كبيرًا من المرونة التي تفسح المجال لإشباعها. ولن يكون موقفه من الفنون والآداب أشد مما هو مع الغريزة الجنسية.

وللقضية جوانب عديدة وأبعاد كثيرة لا يتسع لها هذا الموجز والقول الفصل أن أي تقييد لها يفسد أكثر مما يصلح.. وأن الموقف إنما يتحدد من الداخل لا من الخارج، من نفس الممارس ونفس المشاهد، وليس من رقابة السلطة وتقييدها.

وقد أدى موقف الدعوات الإسلامية من الفنون إلى تجاهل كل ما يتعلق بالسينما والمسرح والغناء، والرقص إلخ فهذه كلها رجس من عمل الشيطان، وإذا أصدروا صحيفة فإنها لا تعرض لهذه الفنون ولا تعرض صورًا من مشاهد الأفلام أو حتى تنشر نقد " فنيًا " وليس عبثًا أن لم يظهر في معسكر " الإسلاميين " فنان يجمع بين الفكر الفني والفكر الإسلامي باستثناء علي باكثير من الرعيل الماضي وصافيناز كاظم في الحاضر وهي ناقدة مسرحية متمكنة وكان يمكن لسيد قطب أن يكون ناقدًا أدبيًا مع احتفاظه بالاتجاه الإسلامي، كما كان اليوت ناقدًا لحضارة العصر وداعيًا للمسيحية، ولكن الحاكمية الإلهية أخذته بعيدًا عن عالم النقد الأدبي وكان موقف الفنانات المعتزلات أكبر دليل على سوء فهم الدعاة الإسلاميين للفن، وأن ما يجد بهؤلاء الفنانات هو التوبة، والإقبال على العبادة تكفيرًا عما قدمن وهذا هو ما فعلته، وكان لهن مندوحة في العمل واستثمار أسمائهن مواهبهن لرعاية فئات عديدة محتاجة أو العمل لمقاومة الجهل، والظلم والاستغلال التي تكبل المجتمعات الإٍسلامية وتحول دون تقدمها.

3- المرأة:

نص القرآن الكريم بصريح العبارة على المساواة العامة ما بين الرجال والنساء وقال: **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ (71 التوبة)..

﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ** ﴾ ﴿ **وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ** ﴾.

وقد تضمن القرآن بعض الأحكام في الميراث أو الشهادة للمرأة طبقًا لأوضاع معينة كانت سائدة وقتئذ ومع أن بعض هذه الأوضاع قد تغير، فتظل الأحكام التي أوردها القرآن سليمة وقابلة للتطبيق. على أنه ليس هناك ما يمنع من إعادة النظر عند الضرورة ولم يكن هناك ما هو أكثر قداسة وتحديدًا من مصارف الزكاة التي قال عنها الرسول إن الله حددها بنفسه ومع هذا فإن عمر بن الخطاب أوقف أحد هذه المصارف عندما انتفت العلة التي من أجلها نص عليه..

ونحن نرى أن المجتمع الذي يفصل ما بين الرجال، والنساء مجتمع غير طبيعي يخالف الفطرة وما أراده الله تعالى للمجتمع، كما نرى أن قضية الزي قد أخذت أكثر مما تستحق، فما يريده الإسلام، هو ككل الأديان. درجة من الاحتشام، وإتباع هذه الدرجة أو مجاوزتها يدخل في عداد التصرفات التي يسلكها الإنسان نتيجة لعدد كبير من العوامل الخاصة به. ومن ثم فلابد أن يوجد من يلتزم ومن يجاوز، وكل واحد من هذين أدرى بنفسه، وليس لأحد عنده من حق يصول به أو يفرض عليه، فهو جزء من شخصية صاحبه، وهناك قضايا تتعلق بالمرأة أشد أهمية، فمن الضروري مثلاً للمرأة أن تتعلم بقدر ما تسمح بها ملكاتها الخاصة، ومن الضروري لها أيضًا أن تعمل لا لحاجة أو فاقة وإنما لأن العمل مقوم هام في بناء الشخصية وتفهم الحياة، ودع عنك ما يمنحه للمرأة من استقلالية تنقذها من ظلم ذوي القربى " وظلم ذوي القربى إلخ.. " ودع عنك أيضًا ما ستقدمه للمجتمع من إضافة، وأن هذا العمل هو أفضل سبيل للتعرف على الرجال ومن ثم التعرف على الزوج الأمثل.

إن فرض تحكمات أو تحفظات سلفية على المرأة هي مما نسقطه تمامًا من حسابنا ونرى أنه يخالف روح الإسلام والمقاصد العليا الشاملة له وأن الأصل فيه الجهل والأثرة والعادات والتقاليد البالية.

4- حرية الفكر:

نحن نؤمن بحرية الفكر إلى آخر مدى ونطبق ما قاله القرآن: ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾.

وقضية حرية الفكر من أهم وأقدس القضايا التي يجب أن يحارب في سبيلها كل واحد لديه أدنى معرفة بأسباب تقدم الأمم والشعوب فالحرية هي التي تفسح المجال للمواهب والمبادرات الفردية، وهي التي تظهر الأبعاد المتعددة في كل قضية في حين

لا يستطيع الفرد سوى رؤية بُعد واحد. والحرية هي التي تسمح بالنقد واكتشاف الأخطاء منذ أن تظهر وبهذا يحال بينه وبين أن تتفاقم وتستشري.. بل إن الإيمان الديني نفسه يزدهر وينمو ويثمر في مناخ الحرية، بينما يأسن ويتوثن عندما تنعدم.

ولا يقل عن هذا أن الحرية هي التي تحول دون استبداد الحكام واستغلالهم للجماهير وإذلال الفرد وسجن الأبرياء وتعذيبهم بحيث ينتفي الأمان ويعيش الناس في خوف ورعب من انتصار طارق الفجر.. الذي يأخذهم إلى ما وراء الشمس..

عندما تتحقق الحرية يظهر المكتشفون والمخترعون والشعراء والأدباء وتنطلق الفنون والآداب ويتشجع رجال المال والصناعة لاستثمار أموالهم وتحقيق طموحهم في بناء الصناعة والنهضة بالتجارة والزراعة، ويفسح المجال أمام المرأة والفئات المهمشة للمشاركة في عمل المجتمع.

وعندما تتحقق الحرية تتكون النقابات التي تدافع عن حقوق العمال والجمعيات الخيرية ومؤسسات المجتمع المدني كما تظهر الأحزاب والجمعيات السياسية التي تكشف فساد الحكم أو زيف الانتخابات أو بيروقراطية الإدارة، وتضم هذه الهيئات كلها قوى الشعب بحيث تسهم هذه القوى إسهامًا عمليًا حقيقيًا نابعًا عن الإيمان ومستهدفًا المصلحة.

إن صحيفة يومية واحدة قد تكون أقدر على كشف الأخطاء وتعرية الفساد واقتراح الإصلاح وإفساح المجال لعامة الناس للمشاركة في هموم مجتمعهم من مجلس نيابي تحكمه ضرورات تنظيمية فضلاً عن أنه قد يكون قد جاء من انتخابات مزورة.
ومصادرة مثل هذه الصحيفة هي جريمة اغتيال ضمير المئات والألوف من المواطنين وإبقاء للأمة في ظلمات الجهل والظلم.

ومفتاح هذا كله حرية الفكر.

وهي الحرية التي جاءت في إحدى كتب دعوة الإحياء " إن الحرية في الإسلام تنبع من الحق. ولكن هناك حرية واحدة ليس للحق رقابة عليها لأنها هي الوسيلة للتعرف على الحق وضبطه – هي حرية الفكر ".

وللأسف الشديد فإن الحرية هي أول ما يعني الحكام باضطهادها وكبتها في بلادنا، وتوصلوا إلى ذلك بمختلف الطرق وكانت النتيجة أن تدهورت أحوال الدولة والمجتمع في مصر، والعالم العربي والإسلامي الذي حارب حكامه الحرية.

لهذه الأهمية الإيجابية والسلبية – الإيجابية بمعنى قوى الدفع والتقدم، والسلبية بمعنى الحيلولة دون الاستبداد والتأخر. فإن موضوع الحرية من القضايا الملحة، المحورية، التي لا تنازل عنها.

فإذا قيل إن للحرية انعكاساتها أيضًا قلنا إن الحرية نفسها تصحح هذه الانعكاسات وحتى لو لم يتم هذا تمامًا فإنه خير من الانغلاق الذي يسمح بظهور الاستبداد.

5- الانفتاح والتعددية:

تتميز دعوة الإحياء الإسلامي عن الدعوات الإسلامية الأخرى بأنها تؤمن بالانفتاح، ولا تستشعر حساسية، فلا تحس استعلاء ولا تخشى استلحاقًا، ونقطة البدء هي المبدأ الإسلامي عن أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنا وجدها، وإذا وجدها فهو أحق بها.. وأن عليه أن يطلب العلم " ولو في الصين " وأن الله تعالى أمر بالسير في الأرض والتعلم من الحضارات السابقة، وأن الرسول تحدث عن الأنبياء كإخوة، وقال عن موسى " نحن أولى به منهم " أي من اليهود وقال إن المسيح هو أقرب الأنبياء إليه، إذ لا يفصل بينهما رسول من أولي العزم.. وعندما دخل المدينة لم يستشعر حرجًا من أن يضم اليهود إلى قبائل الأنصار المؤمنة، مع المهاجرين، ويقول عنهم إنهم " أمة واحدة " وأن القرآن الكريم فرض على المسلمين الإيمان بأنبياء كل الأديان إلى درجة " لا نفرق بين أحد منهم " وكان هو أول من نادى بالعالمية وفتح أبوابها على مصراعيها عندما قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ وأمر القرآن الكريم بالعدل والبر حتى مع شنآن العداوة ﴿ **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾ ﴿ **لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾.

لا يتصـور مع هـذا " انغلاق " أو تجاهل الآخـرين، دع عنك معـاداتهم لمجـرد أنهم " آخرون ".

أما ما يخشونه من تغلغل للمؤثرات الخارجية، والغزو الفكري فهو ما لا يمكن أن يقال على علاته، فمن الطبيعي أن يميز المسلم بين الصالح والطالح الغث والسمين لأنه ليس قضاء يشغله أي شاغل.. أو ورقة بيضاء يسودها أي واحد. فالقيم الإسلامية التي تدفع المسلم للانفتاح على الخير هي نفسها التي تدفعه للانصراف عن الشر.. كما أن هذا الموقف هو جزء من الموقف العام الذي قد تعبر عنه بعض الكتابات الإسلامية بالابتلاء وصوره القرآن بحمل الأمانة.. بل وجعله واقعًا لا مناص عنه عندما أباح للشيطان فتنة الإنسان وأنظره إلى يوم يبعثون. فالانفتاح جزء من الموقف العام للإسلام تجاه الآخرين وهو لا يقتضي ضرورة أن يفتن المسلم أو يتزعزع إيمانه.

إن الحوار بين الحضارات وتلاقيها وما يثمره هذا التلاقي من تلاقح وإخصاب واقع تاريخي استفاد منه الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية، أما تصادم الحضارات فهو تصور السياسيين والرأسماليين الذين لا يرون الأمور إلا قتالاً أو استحواذًا.

من هنا فإن دعوة الإحياء الإسلامي تتسم بالانفتاح والتعددية وتبعد عن الانغلاق والتقوقع والانفراد الذي تتصف بهما معظم الدعوات الإسلامية المعاصرة.

6- التصرف:

ظهر التصوف كرد فعل لبعض الانحرافات التي حدثت في المجتمع الإسلامي مع تحول الخلافة إلى ملك عضوض، وفي مرحلة لاحقة عندما أصيب الفقه الإسلامي بالجفاف والشكلانية نتيجة خضوعه للمنطق الأرسطي ولاستلحاق الحكام للفقهاء.

وقد حاول بعض الصوفيين أن يعودوا به إلى أيام النبوة أو خلافة علي بن أبي طالب ولكنها دعوى ركيكة لأن إيمان هذه الفترة كان إيمانًا سليمًا متزنًا لا يحتاج معه إلى التصوف.

وإنما أصبحت هناك حاجة ماسة إلى التصوف في العهد الأموي الذي شاهد اسـتبداد حكام سموا أنفسهم خلفاء، وكانوا في الحقيقة ملوكًا ﴿ **إِذَا دَخَلُوا قَرْيَـةً أَفْسَـدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً..** ﴾ ومع وقـوع تلك المآسي كقتل الحسـين وآلـه، وضـرب الكعبة بالمنجنيق وواقعة الحرة.

واقترن هذا الاستبداد بتفشي الثراء في فئات معينة دون بقية الناس ويمكن اعتبار صيحة أبي ذر إرهاصًا، وقد حدثت لأن عثمان تخلى عن الأصول التي وضعها عمر لما تكون عليه السياسة المالية الصارمة للدولة.

وجعلت هذه العوامل الثلاث: أعني استبداد الحكام استبدادًا كبت الحريات وحال دون ظهور تنظيمات يتنفس عبرها المجتمع ويعبر عن نفسه، وتفشى الثراء في قلة من الناس بينما جمهور الشعب فقير، جائع، يكدح في الأرض أو يعمل في خدمة السادة ولا أحد يعني به، وأخيرًا تحول الفقهاء إلى نمط من رجال القانون الذين يستهدفون حماية الأمن والنظام وتعاونهم مع الحكام والطابع الجاف البعيد عن التقوى والورع الذي أخذه الفقه وغلبة الطابع الشكلي عليه وابتعاده عن واقع الحياة..

نقول إن هذه العوامل الثلاث أعطت التصوف خاصيته وهي الزهد والبعد عن غمرات الدنيا وجعلت ظهوره أمرًا لا مناص عنه، ودفعت بالجماهير المحرومة والمستبعدة إليه، وفي الوقت نفسه أبرزت عددًا من العقول لتضع للتصوف ما يشبه النظرية الفكرية.. من ناحية والإجراءات التنظيمية التي تمسك كيانه وتشد أركانه من ناحية أخرى.

كانت الطرق الصوفية هي الملاذ الوحيد للجماهير التي تخلت عنها نظم الدولة، واعتصرتها وسائل الضرائب، وكانت ملاذًا وللأتقياء من الناس الذين ضاقوا ذرعًا بالفقهاء والحكام ويأسوا من إصلاح النظام، وكذلك الشباب المكبوت الذي لا تجد طاقة الحياة فيه منفذًا.. كل هؤلاء إلى من يذهبون؟ وبمن يلوذون؟ لقد كان التصوف هو الملاذ الوحيد لهم الذي استوعبهم وتعامل معهم بطرقه الخاصة.

ووضع التصوف العلاقة بين " المريد والشيخ " باعتبارها نواة التنظيم في إطار حديدي صارم يجعل المريد " كالجثة بين يدي المغسل " وهو تشبيه يغني عن أي إضافة، ويجعل العلاقة ما بين المريد والشيخ أوثق من علاقة الجندي بالضابط فالجندي

وإن كان عليه أن يطيع الأوامر دون مناقشة، فإن له الحق في " التظلم " وهو حق لا يتصور في العلاقة ما بين المريد والشيخ فقد كان على المريد أن يستسلم قلبًا وقالبًا للشيخ، وإلا خاب وخسر..

ولتلطيف هذه العلاقة ولإمكان قبولها نسجت الأحاديث والأقاويل والروايات عن الكرامات وعن عالم الأقطاب والأوتاد.. وألصقت " الخرفة " بعلي بن أبي طالب بحيث يجد المريد نفسه وهو يعيش في عالم أسطوري يكتسب قوته ووجوده من العقيدة.

كما نظمت " الحضرة " وحلقات الذكر وتطرق إليها عنصر فني وسمح بهامش من الموسيقى والرقص. كما سمحت الموالد بدرجة من الاختلاط بين الرجال والنساء وشهود صور من الألعاب والفنون والسير في مواكب تغطيها الأعلام العديدة وتلهبها الأناشيد حماسة وعاطفة.

بهذا أصبح التصوف ظاهرة بارزة في حياة المجتمع، وأصبح له تنظير يقوم على عقيدة وتنظيم يقوم على ما توصل إليه شيوخه من ترتيبات تجمع ما بين الإدارة والتربية والتنظيم.. وكان بهذا مهيئًا للقيام بدور كبير، فهو التنظيم الأول – وربما الوحيد – الذي تمكن من حشد جمهور الشعب وتنظيمه وتسييره.

وبالفعل، فإنه حتى مع ما اصطحب به من خزعبلات كان مدرسة تنظيمية تربوية شعبية ونافذة تخترق أسوار الاستبداد والفاقة والجهالة التي كانت تكبت كل تنظيم آخر ومكنت الجماهير وعامة الناس من أن تأخذ بحظ ساذج في صور من النشاط العام.

وإذا ذكرت مساوئ التصوف، فجب أن نذكر في حسناته العظيمة أمرين:

الأول: أن الطرق الصوفية كانت إحدى الوسائل الفعالة في نشر الإسلام في النواحي القاصية. كانت الزاوية السنوسية البيضاء معلمًا للعلم والنقاء وسط الظلمات الأفريقية المتكاثفة، وكانت الطريقة القادرية والنقشبندية قنوات لنشر الإسلام في آسيا من الصين حتى القوقاز بما في ذلك اندونيسيا والملايو. وظلت هذه الجماهير التي كسبتها الطرق الصوفية مخلصة للإسلام في الوقت الذي طويت فيه صحف أقطار أخرى دخلها الإسلام بالسيف. فمن دخل بالسيف.. بالسيف أخرج.

الأمر الثاني: أن الطرق الصوفية. بحكم ما أشرنا إليه من أنها كانت التنظيم الوحيد الذي حشد الجماهير ونظمها. كانت هي التي تحملت عبء مقاومة الاستعمار الأوروبي طوال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وكانت هي التي شنت حرب التحرير عندما حانت الفرص. ظهر هذا في السودان حيث بدأ المهدي حربه ضد الإنجليز وفي ليبيا حيث قادت السنوسية الحرب ضد إيطاليا التي لم تتمكن من التوغل وراء مرمى مدافع أساطيلها إلا بعد قتل عمر المختار، وظهر في الجزائر عندما شن عبد القادر وهو صوفي عريق الحرب على فرنسا وعندما حافظ الشيخ ابن باديس

على العربية والإسلام ضد الإذابة، وظهر في الريف (المغرب) عندما تولى الأمير عبد الكريم الخطابي الحرب على أسبانيا، وقامت الطريقة النقشبندية والقادرية بتنظيم المقاومة ضد الروس في منطقة القوقاز ولمعت خلال ذلك أسماء الشيخ شامل وحاجي مراد.. وغيرهما.

هذه صفحات مشرفة يجب أن لا تنسى للطرق الصوفية..

ولكن الطرق الصوفية تستطيع – في العصر الحديث. أن تقدم إضافتها..

إن تهذيب النفس ورياضة الغرائز وكبح الشهوات والسمو بالروح لا يتطلب بالضرورة هذه الأساطير التي وضعها الأسلاف لتعزيز منزلة الشيوخ وتدعيم بناء التصوف، ولا هي تقتصر على الوسائل الساذجة والبدائية في تنظيم الحضرة وحلقات الذكر وعقد الموالد.. فهذه كلها كانت من مقتضيات الماضي المغلق البعيد ويمكن الآن أن تؤدي بأساليب مهذبه، وقد آن الأوان للتصوف لأن يخلص من أدبياته التي تتفاوت ما بين الأسطورة والشعبذة.. وأن يستلهم آدابه وقيمه من القرآن الكريم. وأن يجعل من الرسول وسيرته الأسوة الحسنة لكل الصوفيين.

وفي الوقت الذي يمكن للطرق الصوفية أن تواصل مهامه في نشر الإسلام ومقاومة الاستعمار الذي أخذ صورًا وأساليب جديدة. فأعتقد أن له دورًا كبيرًا في العمل في المجتمع.. وبوجه خاص في مجالات مثل التعليم، و " التمريض " ورعاية المعوقين، والعناية ببعض الفئات المحرومة.

ولو أن شيوخ الطرق الصوفية ألموا بتاريخ وتطور ومناشط هيئات " الرهبنة " وهي المقابل المسيحي للتصوف الإسلامي لوجدوا أن هذه الهيئات تقوم بدور كبير في المجتمع جعل شعارها " الدين في خدمة المجتمع " ونحن الآن في حاجة إلى صوفيين لا يجعلون هدفهم " الفناء في الله " ولكن " الفناء. في خلق الله " كما كان يقول جمال الأفغاني أو " حب الله " فله أصل مشرق من القرآن في حين أن الفناء في الله له أصل هتدي غامض – وتجعل من الرحمة، والمحبة، والخدمة والتطوع وبقية القيم الإسلامية محاور في العمل الاجتماعي تغني – ما لا تغنيه – الشهادات أو المرتبات أو المناصب إلخ.. كما قد يكشف عن ذلك تميز أداء الممرضة الراهبة المتطوعة، عن أداء الممرضة " المدنية " المحترفة.. وتميز المدارس التي تقيمها هيئات " الجزويت " وسان فرانسيس، والقلب المقدس وميرده دييه عن المدارس الحكومية " أو التي تقيمها شركات تستهدف الربح – وكذلك الفرق بين زيارة راهبات الزيارة Visitandines المشبعة بالمحبة بزيارة الأخصائي الاجتماعي الرسمية الجافة.

7- القومية:

إذا أريد بالقومية حب الوطن، فإن حب الوطن من الإيمان، ونحن أول من نتقبلها ونتفهم حب كل ذي وطن لوطنه، واعتزازه به والفخر بما قدمه للبشرية من مساهمة حضارية.

ولكن الذي حدث هو أنه أريد أن تكون القومية العربية بديلاً عن الإسلام، وهذه فكرة ضالة وخاطئة.. وقد كان المبرر الأول لها هو أن المفكرين الذين انتبهوا لقضية النهضة العربية أول القرن كانوا من المارونيين في لبنان[15] ومن نصارى سوريا وعسر عليهم بالطبع أن يكون الإسلام هو محور النهضة. فأخذوا بفكرة القومية ناسين، أو متجاهلين. أن القومية العربية دون الإسلام لن تكون سوى صدفة فارغة من لؤلؤتها وهو أمر لن يعسر على أي مفكر أن يفطن إليه.

وإذا أخرجنا من مقومات القومية الدم، لأنه ليس هناك – ولا في الجزيرة العربية نفسها – دم عربي خالص – فضلاً عن أن الدعوى عنصرية بغيضة فلا يبقى إلا اللغة. واللغة العربية التي نتحدث بها اليوم تدين بولاتها للقرآن. ليس فحسب لأنه أوجد اللغة العربية القياسية وجعل العرب جميعًا يتحدثون بها ولا ينحرفون عنها لقد استها. وحال بذلك دون أن تتحول اللغة العربية إلى لهجات إقليمية لا تفهم، ولكن أيضًا لأن كل فنون البلاغة والنحو، والأعراب جاءت في القرآن وكان دور العلماء الكشف عنها لا إنشائها واللغة العربية بنت القرآن وهي محتاجة إليه أكثر مما هو محتاج إليها.

وقد أثبت التاريخ أن القومية شؤم وأنها تجر الكوارث على كل بلد يأخذ بها فعندما ظهرت أول دعوة قومية في منطقة الشرق – في تركيا – حاق شؤمها بالذين دعوا إليها وهي جمعية الاتحاد والترقي – فهزمت تركيا في الحرب العالمية الأولي هزيمة منكرة ومزقت شر ممزق، واحتل الحلفاء القسطنطينية. وعندما حلت بسوريا أدت إلى حكم البعث الديكتاتوري ومذابح حماة، وعندما حلت بالعراق حكمها أسوأ الديكتاتوريين في العالم قاطبة، وألحقت المهانة والفاقة بالعراق، وعندما آمن بها عبد الناصر ورفع رايتها كانت النتيجة هزيمة 67 التي أخزت الأمة العربية مائة عام على الوراء.

كانت القومية العربية دعوة ديماجوجية لا تقل في شعاريتها عن " الحاكمية الإلهية " أو " الإسلام هو الحل" أما المدلول العملي له. فلم يكن محل معالجة عملية باستثناء التجربة المجهضة للوحدة بين مصر وسوريا، وقد كانت الصورة الوحيدة التي أمكن وضعها هي جامعة الدول العربية التي ضربت المثل في الإخفاق والسلبية، وقنعت في كل مجال " بأقل الإيمان " وأتصور أن الدعوة السياسية المثلى في الدول العربية يجب أن تستهدف تكوين عدد محدود من الدول العربية بدلاً من التكوين الفيسفيائي عن طريق الاندماج الاختياري والشعبي بين عدد منها تبعًا لصلات الجوار، ووشائج

---

15 (?) كان الرائد فيها هو نجيب عزوري أسس جمعية الوطن العربي سنة 1904 وأصدر كتابًا بالفرنسية عن يقظة الأمة العربية.

التاريخ والمصلحة كأن تتكون دولة واحدة تضم العراق وسوريا ولبنان وفلسطين ودولة ثانية تضم الجزيرة العربية (السعودية – واليمن – وإمارات الخليج وعمان) ودولة ثالثة تضم تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا، ودولة تضم مصر وليبيا والسودان.
فالعلاقات بين هذه الدولة بعضها بعضًا تسهل هذا الدمج وبذلك يظهر عدد من الدول القوية. يمكن أن يضمها بعد ذلك حلف أوكومنولث عربي.

إن السياسة لا بد وأن ترتكز على دعائم أصولية قوية، ولا بد أن تلحظ الجغرافيا والتاريخ ونقط الاختلاف والائتلاف والمصلحة المحققة التي ستعود على الشعوب والجماهير.

ولو اتجهت الجهود التي تلف وتدور حول القومية العربية هذا الاتجاه، وحملت الهيئات الشعبية من نقابات وأحزاب وجمعيات وتيارات هذه الدعوة وسعت لتطبيقها لأمكن تحقيقها بالفعل ولخلصنا من مساخر المنازعات التي تحدثت نتيجة لنزاع حول الحدود. وما هذه الحدود إلا العقابيل التي وضعها الاستعمار قبل أن يرحل ليوجد عناصر الصراع في المنطقة، وليفتت وحدته وليوجد دويلات كل منها " كالقط يحكي انتفاخًا صولة الأسد ".

8- الاشتراكية:

إذا كانت الاشتراكية دعوة للعدالة، فالأديان أقرب إليها وأولى بها وقد سبقتها سواء في ذلك المسيحية والإسلام. وإذا كانت نظرية علمية في تفسير التاريخ. فهي إن صدقت على تطور المجتمع الأوروبي لا تصدق على تطور المجتمعات الأخرى. وهي تظلم الدور الحضاري للإنسان عندما تركز العناية كل العناية بعلاقات الإنتاج. على أننا نشكر لها أنها نددت باستغلال الرأسمالية للعمال وإن كانت قد أدعت لهم دورًا لم يدعوه لأنفسهم، لأن دور العمال كعمال قد تمثل في الحركة النقابية التي نهضت بالفعل بهم، وأنالتهم من الحقوق السياسية والاقتصادية ما عجزت عن الديمقراطية والاشتراكية معًا.. مع أن الاشتراكية ما بين ماركس ولينين كانت تضيق بالحركة النقابية وتنقض من دورها.

ومع أن كتابات ماركس وإنجلز تضمنت الكثير مما يدين الاشتراكية ويحسب عليها فنحن لا نحملهما تعصب الإتباع وإغراض الشراح، وإدعاءات التطبيق، خاصة بعد أن قال ماركس نفسه " لست ماركسيًا" ومن ثم فنحن لا نتجاوز بالنسبة لهما نقد ما قالا وأن نضع الحجة أمام الحجة والدليل تجاه الدليل.

ومن أبرز وجوه النقص في فكر ماركس وإنجلز.

(1) اعتبار الدين " أفيون الشعوب " ومن ثم ازدراء كل ما يمت إليه ومهاجمة كل فكر ديني وتجاهل الأدبيات الثمينة التي جاءت بها.

(2) أن ماركس تحول من النزعة الإنسانية/ المثالية التي تأثر بها في شبابه والتي كسبت بها الاشتراكية جمهورها – إلى المادية التاريخية – وقد كشف هذه النقطة أحد بحوث " التوسير " وعرض وجهة نظر التوسير كاتب عربي فقال:

" يقـدم التوسـير مقولة جوهرية عنـدما يؤكد ضـرورة التميـيز بين أعمـال الشـباب وأعمــال النضج عند مــاركس من حيث إن الأولى تظل حبيسة فلســفة مســتلهمة من النزعة الإنسانية على حين تحررت أعمال النضج منها تمامًا.فقد قاطع مـاركس الناضج هذه الفلسفة وأنشأ المادية التاريخية باعتبارها علم التاريخ. هذه المقاطعة ذات طبيعة ايستمولوجية حيث أنها تعبر عن الانتقال إلى العلم. وقد وقعت عنـدما كتب مـاركس " الإيـدلوجيا الألمانية " في هـذا الكتـاب يقـول مـاركس وإنلجز إنهما تحـررا من وعيهما الفلسفي القديم. ويجب أن نفهم هـذا حرفيًـا. وعنـدما كتب مـاركس رأس المـال فقد كان موقفه النظري هو موقف المعارض للنزعة الإنسانية أو الهيومانية.

ويستطرد الكاتب فيقول " ويعيد التوسير هذا التطور إلى أن هناك علاقة عضوية بين الفلسفة الإنسانية النزعة وبين صعود البرجوازية. إن النزعة الإنسانية هذه تشكل بالضرورة إيديولوجيا البرجوازية لأن نمو الرأسمالية يتطلب المنافسة الحرة وحتى تكون هذه ممكنة فلا بد من وضع البشر، شكليًا، على قدم المساواة ولا بد من النظر إليهم كذوات حرة ومسئولة. هذا الظرف التاريخي النظري والعملي في آن معًا يشجع على ظهور فكرة المساواة القانونية وذلك بإنشاء وتأسيس الذات كحق. أو كقيمة قانونية. وكل الناس يتمتعون بهذه الذات القانونية.إذن فالنزعة الإنسانية هي الإيديولوجيا السائدة للطبقة السائد في النظام الرأسمالي. الإنسان ذات من كل وجهات النظر. هو إذا. وبالضرورة، العنصر الأساسي الذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار عند تفسير المجتمع أو التاريخ. مفهوم الجوهر الإنساني إذن هو القاعدة أو السند الضروري لأي إنشاء نظري يختص بالظاهرات الإنسانية والاجتماعية وهذا يفترض إعداد فلسفة إنسانية النزعة ".

من هذه الناحية يمكن أن يعد مارك كمفكر مسئولاً عن الطابع اللإنساني الذي شوه كل التطبيقات الاشتراكية، وجعل قادتها يرتكبون – بمجرد تملكهم السلطة – الموبقات والفظائع وسفك الدماء والتضحية بالملايين من البشر ليمكن تحقيق خططهم (كالمزارع الجماعية في الاتحاد السوفيتي) وتصفية القسس ورجال الدين وتحويل الكنائس والمساجد إلى مخازن أو دور سينما، ومعسكرات العمل الرهيبة التي عجلت بوفاة الملايين..

على كل حال، فالمشكلة الحقيقية تظهر مع لينين وتجربته الفذة في التطبيق الاشتراكي، وسواء كان أمينًا على فكر ماركس، أو أنه طوعه بقسوة ليحقق ما يريد فإن تجربته بعد أن نجح في الوصول إلى حكم روسيا – أصبحت التطبيق العملي للاشتراكية، والمثال الذي يحتذي في كل العالم وكان مثالاً بشعًا للغاية يقوم على القهر والانفراد بالسلطة وكبت الحريات وإخراس الأصوات المعارضة، وحل الأحزاب واستلحاق النقابات والهيئات الجماهيرية، ووضع لينين نفسه الخطوط التي يقوم عليها أبشع جهاز للمخابرات والتجسس، ووضع خطة الإرهاب الحكومي الشامل الذي قلده بعد ذلك موسولين وهتلر. وكل قادة الاشتراكية المزعومة التي ظهرت في مختلف دول العالم، بما في ذلك الوطن العربي.

وكائنًا ما كانت الأهداف التي أدت بلنين إلى سلوك هذا المسلك، ومهما كانت المنجزات التي توصل إليها فلا يمكن مطلقًا إيجاد أي صلة بين نظامه وبين أصول الحرية، والديمقراطية وحقوق الإنسان وأمن المواطن. فلم تختلف وسائل لينين عن وسائل القيصر " إيفان الرهيب " بل إنها كانت أكثر إيغالاً ومضاء في الوحشية.

9- التطرف والإرهاب:

أصبحت ظاهرة التطرف والإرهاب هي أكثر ما يوصف به الأصوليون كما يقولون ويقصدون في الأغلب الإسلاميين وأن لم نعدم أصوليين من أديان أخرى. والتعصب والتطرف والإرهاب ثلاث محطات على طريق واحد يوجده أصلاً الجهل. فالجهل يؤدي بأصحابه إلى التعصب والتعصب يصل بهم إلى التطرف والتطرف يجد نهايته في العنف. وهي سلسلة منكودة من الظواهر لا يمكن أن توجد في بيئة صحية سليمة. وإنما توجد دائمًا في مناخ الفساد والتحكم والفقر والجهالة.

وقد كان أول ظهور لها في سجون عبد الناصر كرد فعل على التعذيب الوحشي الدنيء، فكل رد فعل لابد وأن يتسم بما في الفعل نفسه من نقائض وأدى إلى تفاقم الظاهرة فساد النظم الحاكمة ولجوئها إلى الحل الأمني – لعجزها عن تطهير نفسها من الفساد، أو إحلال الحريات محل الكبت والقهر..

فمع أن الظاهرة سيئة. بل بشعة، فإنها لا يمكن أن تعالج من ناحية واحدة، ولابد أن يشمل العلاج الأوضاع الحكومية السيئة التي تولد التعصب والثورة وأبرزها الطغيان وكبت الحريات لأن هذه الصور من العنف الأهوج ليست حقيقتها إلا صورة غشيمة للرد على فساد الحكومات. ولا يمكن أن تقوم على أساس نظري أو أصولي. فكل الأسس الأصولية ترفضها وتشجبها ولا تتقبلها.

وإنه لمن السفه أن يتصور البعض أن اغتيال بعض الأشخاص – أو تدمير بعض الدور سيؤدي إلى الاستيلاء على الحكم! أو حتى إرهاب الحكام. أنها تستنفرهم بكل قوة وحتى لو فرضنا جدلاً – وبحكم عوامل طارئة أن هذه المحاولات ستنتصر – كما حدث في أفغانستان حيث ظهرت طالبان – فإنها لا يمكن أن تمارس حكمًا رشيد وستنتج النهج الذي عابته على الحكومة – نهج الديكتاتورية والعنف.

وقد أظهرت تجربة التاريخ أن كل محاولات العنف بالفشل – وقد كانت أكبرها هي حركة " النهليست " ثم روسيا ما بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين فقد كبتت الحركة وأعدم أو سجن قادتها، وطويت صفحتها حتى وإن كان من المحتمل أنها هيأت المسرح لظهور الثورة البلشفية..

ودعوة الإحياء الإسلامي يتملكها الأسى لما تشده من جهل قلة شاردة بالإسلام يؤدي إلى التعصب، فالتطرف، فالعنف، ولو فهمت الإسلام لما مارست هذه الجماعات مثقال ذرة مما تحاوله. فكل الدعوات الإصلاحية لا بد وأن تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة والبعد التام عن كل صور القهر أو العنف لأن الغايات النبيلة لا بد أن تكون وسائله نبيلة، وإلا فستقضي الوسائل غير النبيلة على كل عناصر النبل في الغاية.

ودعوة الإحياء الإسلامي تطرح كل ما يتخيله يراع هؤلاء أو يدعونه من فقه جهاد. فالجهاد الأعظم هو جهاد النفس ولا يكون القتال إلا ردًا على قتال، وبقدره، وبعد استنفاد كل وسائل الحسنى.

10- الحضارة الأوروبية:

الحضارة الأوروبية هي – باختصار – الإنسان بملكاته الثلاث، العقل والوجدان والغريزة، وقد ظهرت بمقوماتها من الأيام الأولى لليونان. فعلى نقيض الشرق لم يتصور فلاسفة اليونان أن أصل الأشياء، والمخلوقات تعود إلى إله، ولكن إلى النار، أو الماء، أو الذرات، وقد أمكنها أن تشبع الملكات الإنسانية الثلاث إلى آخر مدى يمكن للإنسان أن يصل إليه ونشأت عن هذا أمجادها وإنجازاتها كما نشأت أيضًا ردود فعل ذلك وأبرزها تجاهلها للآخر. فتركيزها على الإنسان ونفي كل ما عداه واستغراقها في نفسها، وأن " الإنسان " يتحول في بعض الحالات إلى الفرد الذي لا يأبه للفرد الآخر إلا مضطرًا وبحكم ضرورات التنظيم الاجتماعي. ولما كان هذا الاضطرار غير موجود

تجاه الإنسان غير الأوروبي فإن هذه القوى انطلقت على غلوائها وثبت أنه لا العقل ولا الوجدان يمكن أن يتصدى لما تمليه الغرائز من أثره وأنانية واستحواز واستغلال.

فإذا سلطت على الآخر الذي لا يملك مثل ما تملك هي فإن قوى الوجدان تتقهقر أمام الغرائز ومن ثم تعد إبادة الطرف الآخر أفضل الحلول وهو ما مارسته الحضارة الأوروبية بالفعل في أفريقيا وآسيا والهنود الحمر.

على أن تجاهلها للآخر – عندما يصل إلى الله تعالى فإنه ينتهي بها إلى أن تقضي على نفسها، ذلك لأن الله تعالى هو وحده الذي يملك كبح طغيان الإنسان وإلزامه الوقوف عند الحدود التي يضعها له والتي تكفل السلامة وتحول دون الشطط الذي لا بد وأن يأتي في النهاية عليها. وهذا هو النقص الأعظم في الحضارة الأوروبية – بالنسبة لها نفسها – إن " التضخم " لا بالمعني الاقتصادي وإنما بالمعنى الشامل يشبه نمو سرطانيًا لا يلبث أن يتغذى على الخلايا الحية للمجتمع، وهي لا تملك أن توقفه، بل إنها تتورط أكثر وأكثر فيه. إن الحضارة الأوروبية ستموت من التخمة في حين أن الحضارات الأخرى كانت تزول من الجوع.

ولو أن أوروبا تعرفت على الله، كما صوره القرآن الكريم وآمنت به لعالجت أكبر وجوه نقصها ولتخلصت مما يشوها، وما سيؤدي إلى انهيارها وهو التجاوز والشطط.

وهذا هو ما يقدمه الإسلام لأوروبا.

11- مواطنون غير مسلمين:

في كثير من الدول الإسلامية توجد مجموعات مسيحية أو يهودية إلخ.. وللوهلة الأولى يبدو أن موقف هذه المجموعات لا بد وأن يتسم بنوع من القلق إزاء الدولة الإسلامية أو المجتمع الإسلامي. وهذا فعلاً هو الواقع، ولكنه يعود إلى الطبائع والعواطف والمشاعر أكثر مما يقوم – بالنسبة للإسلام – على حقائق أو موضوعية. ذلك أن الإسلام لما كان آخر الأديان فقد كان عليه أن يحدد الموقف منها وقد حدده على أساس الاعتراف بالأديان السابقة كلها، والاعتراف بأنبيائها – أو قل الإيمان بأنبيائها إلى الدرجة التي " لا نفرق بين أحد منهم " بما في ذلك نبي الإسلام وتحديد الموقف تجاه هذه المجموعات من الإسلام على مبدأ **لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ** .

وفي الأيام الأولى لظهور الإسلام شن اليهود حملة عليه لما اتصفوا به – وما زالوا يتصفون به – من استعلاء – وأنهم " شعب الله المختار " وألبوا عليه مشركي مكة وسجل القرآن هذا الموقف وندد به، ولكنه استثنى منه من لم يسلك هذا المسلك فقال " ليسوا سواء ".

وقال:

 وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ (75 آل عمران).

ولكن الإسلام كان قريبًا من المسيحيين لأنه ما من رسول يفرق رسول الإسلام ورسول المسيحية **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ** .

وبالنسبة لأقباط مصر، فإن الرسول كان يشعر بعاطفة خاصة لأن أم العرب هاجر مصرية تعرضت لاضطهاد سبق به الإسرائيليون اضطهاد المصريين لهم فيما بعد

ونفيت إلى الصحراء وكانت سببًا في ظهور زمزم – والصفا والمروة فهي جزء من التاريخ الإسلامي/ العربي – وأن الرسول نفسه تزوج من " ماريه القبطية " التي ولدت له إبراهيم الذي أسعده حينًا من الدهر ولهذا فقد رأى أن لهم نسبًا وصهرًا.

ومعــروف أن الإســلام اتصف بســماحة لم تتصف بها معظم الأديــان الأخــرى. وأن اليهود، وهم الأعداء القدامى للإسلام – لم يسعدوا في مجتمع كما سعدوا في المجتمع الإسلامي ولهذا فإن الموقف الإسلامي المقرر بحكم واقع الإسلام – وبحكم روحــه. هو مسـالمة كل الـذين لا يـدينون بالإسـلام ما دامـوا لا يقـاتلون المسـلمين ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ وتقبل وضـعهم كمواطـنين غـير مسـلمين " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " وليس الضيق بهذا الوضع أو الرغبة في تحويلهم عنه.. فلو كان في هذا خــيرًا لأمر الله به " ولكان الناس أمة واحدة..

ومعروف أيضًا أن روح المسيحية هي الرحمة والمحبة، وأن روح الإسلام هو العدل والأنصاف، وهذه قيم متكاملة. يفترض أن يوجدا معًا حتى يتحقق الكمال، ولهذا فإن حكمة الله البالغة اقتضت وجودهما، وأرادت لهما البقاء معًا، ورفضت فكرة الأمة الواحدة التي لا تدين إلا بدين واحد وهي حكمة يعجز عن إساغتها كثير من الناس لغلبة العواطف والذاتيات عليهم.

وبعد هذا كله، فالأديان كلها في سلة واحدة لأنها جميعًا تؤمن بالله في مواجهة من تطلق عليه هذه الأديان " الشيطان " أي غلبة الأثرة والأنانية والاستمتاع وما تدفع إليه من طمع واستحواز واستغلال وظلم، وهو الاتجاه الذي لا بد وأن يغلب على النفس الإنسانية إذا لم يعصمها الله بدينه ورسالته ومن هنا فالمؤمنون جميعًا تجمعه أصرة واحدة في مواجهة " الماديين " الذي لا يؤمنون بالأديان أو يرونها " أفيون الشعوب " ويكون أي واحد من هؤلاء؟ المؤمنين أقرب إلى المؤمنين الآخرين مما هو بالنسبة لغير المؤمنين بالدين أصلاً..

ومن المؤسف أن ليس كل الناس يدرك هذه الحقيقة. على بداهتها، وأن بعضهم من غير المسلمين قد يؤثر اعتناق الماركسية نكاية في الإسلام رغم أن الماركسية أبعد إليه من الإسلام..

ومن الحق أن هذه الأقليات يهودية أو مسيحية – كانت كبش الفداء من بعض الحكام المسلمين الظلمة، ولكن حكم هؤلاء الطغاة طال المسلمين أيضًا، كما حدث في بعض الحالات أن اصطنع الحكام أفرادًا من هذه الأقليات حتى ندد بذلك بعض الشعراء على أن هذه التصرفات سواء كانت اضطهادًا أو اصطناعًا يجب أن لا تحسب على الإسلام، فما يحسب على الإسلام هو القرآن والصحيح الثابت من حديث الرسول الذي يتفق مع القرآن..

وعلينا أن لا ننسى العداوات الحادة بين المذاهب المسيحية – وأن بعضها ارتكب الفظائع مع أنصار المذهب الآخر، كتلك الحرب المريرة ما بين الكاثوليك والبروتستنت التي حفلت بالمذابح ولا تزال بقاياها بين المجموعتين في إيرلندا، كما أن المسيحيين البيزنطيين أذاقوا الأقباط المصريين سوء العذاب، وكان الذي حررهم من هذا

الاضطهاد هو عمرو بن العاص الذي يعد أحد بناة الكنيسة القبطية، لأنه استنقذ البطريرك بنيامين ووكل إليه ممارسة سلطاته الكنسية بكل حرية..

أما الجزية، فإنها قطعة من مقتضيات العصر القديم وكانت الفكرة الرئيسية فيها أنها مقابل لإعفاء غير المسلمين من الاشتراك في الجيش الإسلامي مع تمتعهم بحماية هذا الجيش، يدل على ذلك أن النساء والأطفال والمسنين كانوا معفين منها، وكأن المجتمع وقتئذ أخذ بما تأخذ به بعض النقابات في العصر الحديث خاصة في الولايات المتحدة – عندما يعزف بعض العمال لأسباب مختلفة عن الانضمام إلى النقابة فتفرض عليهم النقابة دفع رسم انتفاع يطلقون عليه Agancy Shop مقابل ما تقدمه النقابة من خدمات للعمال جميعًا سواء كانوا أعضاء فيها أو لم يكونوا. ومن المسلم به أن " القومية " نزعة حديثة لم تكن موجودة لا في أوروبا ولا في الشرق طوال القرون الوسطى. وأن أوروبا كانت تعتبر المسيحية أبرز مقوماتها. وكانت الكنيسة هي التي تهيمن على المجتمع سياسيًا واجتماعيًا فالوعي الديني كان هو الغالب طوال العصور القديمة حتى بدأت الفكرة القومية مع مشارف العصر الحديث، وظهر أنها أكثر تجاوبًا مع حاجات المجتمع وقتئذ.

إذا استوعبنا ما قدمناه، فإننا لا نجد مبررًا لأي حساسية بين المؤمنين بأديان مختلفة لأن كل واحد منهم يمثل ركنًا في " البيت الكبير " الدين، وهو بهذا صاحب دور أصيل شأنه شأن الآخر.. ويفترض أن تتملكهم جميعًا العاطفة التي تمتلك الإخوة – وأن تعددهم يعطي الأسرة وقوة وتماسكًا ويشيع مشاعر الود والمحبة بين الجميع..

وهذا التكييف الإسلامي لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين المؤمنين بأديان مختلفة أفضل من التكييف الذي تدعو إليه بعض الأقليات من أن يحصر كل واحد دينه فيما بينه وبين الله. أما ما بينه وبين الآخرين فقد يكون العروبة أو " القومية " أو " المصرية " إلخ.. لأن هذا الافتراض ليس هو الأمثل كما أنه غير عملي فمن العسير جد أن يحبس الدين في نفس الفرد دون أن يطل على المجتمع، ولأن القومية أو المصرية إلخ.. ليست آصرة محكمة أو صفوًا خالصًا لا تكدره الخلافات ولأن الإسلام عندما قرر حقوق الأقليات في القرآن والسنة فإنه حمي هذه الأقليات من أفتيات الأغلبية – التي هي حكم الديمقراطية – على هذه الحقوق بحيث تتمتع بها في الدول الإسلامية في حماية الإسلام وتخسرها الأقليات الإسلامية في أوروبا/ لتحامل الأغلبية/ الديمقراطي فضلاً عن أن التعددية لها مزاياها التي تحول دون الطغيان، والانفراد وتسمح للجميع بالوجود في الساحة في ظل أخوة الأديان وأنها بيت واحد – بيت الإيمان – وللجميع حقوق وواجبات واحدة " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " وهو مبدأ إسلامي عريق.

12 – العقل والنقل:

نعتقد أن من أكبر أسباب تخلف المجتمع الإسلامي أنه منذ ألف عام أخذ بالتقليد، وهو الأداء دون السؤال عن السبب أو الحكمة. فتعطل وتوقف وصدئ عقل المسلمين وبالتالي تأخروا، وهو بالطبع أمر بديهي. فإنما يتقدم الإنسان بما فضله الله تعالى به على العالمين، بل وعلى الملائكة المقربين – وهو العقل..

ونحن نرفض تعبير النقل ونرى فيه أثر هذا الصدأ العقلي ونفضل عليه تعبير " الوحي " الذي نعطيه الحق والاختصاص فيما يتعلق بذات الله تعالى وعالم الغيب وبصفة عامة العقيدة والإيمان على أن يتجلى هذا الوحي في القرآن الكريم صريحًا دون تأويل. أما الشق الثاني من الإسلام وهو الشريعة فإنه يقوم بالكامل على العقل وأي أطراح له يسمح لأن تدخل الخراف.

ويتملكنا الأسى عندما نرى الشباب وهم معقد الأم في المستقبل يزهدون في التفكير ويبخسون قيمة العقل ويفضلون النقل والإتباع. ولن يتقدم المسلمون ما ظلوا كذلك. ولا بد أن يعلموا أن العقل هو أيضًا وحي من الله، وأنه تعالى أنعم على الناس

جميعًا به حتى يحميهم من الانحراف. أو الاستتباع، أو الخضوع، وأنه لا يمكن فهم القرآن نفسه إلا باستخدام العقل والتدبر والتفكير. أما دعوى أن العقل قاصر وأنه يتفاوت وعبارة " عقلي وعقلك " السقيمة فليس إلا شبهات لا أصل لها. فإن تفاوت العقول يثري الموضوع ويكشف أبعادًا خافية وباستمرار البحث والدراسة والمناقشة تتجلى الحقيقة، وفي النهاية يذهب الزبد جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

13- تطبيق الشريعة:

ما من عبارة تمثل " الشعارية " مثل تطبيق الشريعة وهي تنافس في هذا العبارة الأخرى "الحاكمية الإلهية".

ونؤكد أن غالبية الذين يطالبون بتطبيق الشريعة لا يعلمون ما هي الشريعة على وجه التحديد وليس لديه فكرة عن طرائق التطبيق، ولا ينافي هذا أن المطلب في حد ذاته مطلب مشروع ونبيل ولكن علينا أن نسير على هدى وبصيرة وأن نعلم أولاً ما هي الشريعة المطلوب تطبيقها. وما هي الوسائل التي يمكن بها تحقيق هذا التطبيق.

الشريعة يا سادة ليست الحدود، وليست إلزام النساء البيوت ومحاربة الفنون والآداب والضيق بكل وسائل الترفيه.. الشريعة يا سادة في كلمة واحدة هي " العدل " فإذا أردتم الشريعة فطبقوا العدل. بحيث ينتفي التقطب السيئ ما بين فقراء لا يملكون شيئًا ويعيشون في المقابر وأغنياء يملكون كل شيء بما في ذلك مدن سياحية وقصور في مختلف دول العالم. وينتفي التقطب السياسي ما بين حكام يستبدون بالأمر ويحكون بالحديد والنار وينفقون أموال الدولة على السجون وما يسمونه الأمن الداخلي، وجماهير لا تستطيع أن تمارس معارضة أو أن تساهم في الحكم.

فكل صور الديمقراطية في العالم الإسلامي مزيفة.

لقد أثبتنا في كتابنا " نظرية العدل في الفكر الأوروبي والفكر الإسلامي " أن العدالة ليست من القيم الحاكمة في الحضارة الأوروبية، ولكن الحرية وهي أبرز القيم الحاكمة مكنت الفئات المظلومة – من عمال ونساء وجنود – من أن تنال العدالة، في حين أن العدالة قيمة محورية حاكمة في الإسلام وهي رمز الشريعة، ولكن انعدام الحرية حال دون تطبيق العدل وبهذا وجدت تلك المفارقة: أوروبيون يحققون العدل الإسلامي ومسلمون يطبقون الظلم الأوروبي؟

وتطبيق الشريعة لا يمكن أن يتم بطرق سلطوية، فكل الطرق السلطوية مقيتة ملعونة حتى لو أرادت خيرًا لأنها تقتضي الديكتاتورية والطغيان. وهو نقيض الشريعة. وإنما يمكن تطبيقها عندما تؤمن بها الأغلبية العظمى من الناس ويتحقق فيها ما تحقق لدى الأنصار عندما آمنوا واستقدموا الرسول ليطبق عليهم الشريعة. أما عندما تؤمن مجموعة قليلة تتمثل في حزب أو هيئة وتعمل للوصول إلى الحكم لتطبيق الشريعة فهذا أسلوب خاطئ تمامًا لأن هذه الأقلية سنضطر للعمل بطريقة الديكتاتورية، والديكتاتورية مفسدة، ولا علاج لها.

فهل فهمتم أيها السادة هذا حتى لا يكون كمن ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونـداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون!!

14- العلم والعمل:

من الموضوعات التي تحلها دعوة الأحياء الإسلامي في ألوياتها قضية الجمع ما بين العلم والعمل وأن نظم التعليم المطبقة في الدول النامية تقدم بطريقة التلقين وحشو معلومات قد تكون حسنة، أو هامة، ولكنها ليست ما تتطلبه حياة المجتمع على وجه التعيين، وأهم من هذا أن هناك فصلاً تامًا ما بين العلم والعمل فأصبح العلم نظريًا بحتًا. كما أن العمل حرم من العلم. إن العلم يعطي العمل عينين.. والعمل يعطي

العلم يدين بحيث يسير كل منهما على هدى ولو حرم العلم العمل لفقد اليدين كما لو حرم العمل العلم لفقد العينين..

وأدت الترجمة العملية لهذا إلى وجود فئات عديدة من الخريجين لديها معلومات نظرية ولكنها لا تستطيع استخدامها، فضلاً عن أن المجتمع ليس في حاجة إليها، أو لا يلمس حاجة بقدرها فتكون هناك بطالة المثقفين ومن ناحية ثانية هناك ممارسات للعمل يدوية غشيمة لا يمكن أن تتقدم..

وزحفت " النظرية " على الكليات العملية بطبيعتها كالهندسة والطب فنجد المهندس الذي يأنف أن يلبس بذلة العمل الزرقاء أو يصعد السقالة أو يتابع خلطة الأسمنت المسلح ونجد الطبيب الذي لا يحسن إعطاء حقنة أو ممارسة إسعاف أولى.. وفي الوقت نفسه حجب المستوى الفني الرفيع عن معاهد التدريب المهني التي تخرج العمال المهرة..

وكان لهذا الانفصام أثر اجتماعي وبيل إذ أصبح المثقفون هم الطبقة البورجوازية، وأصبح العمال هم الطبقة الدنيا وأصبحت الميزة الفارقة بين الأولين والآخرين " الشهادة فكأن الجامعة أقامت سورًا بسمك الطبقة يفصل بين جماهير الشعب..

ولا يجوز في مثل هذا المجتمع أن يُرقى الميكانيكي إلى مهندس أو الممرضة إلى طبيبة أو الجندي إلى ضابط فهؤلاء الأطباء والمهندسين والضباط هم من خريجي الكليات الجامعية بها وقد دخلوها بفضل " المجموع " حتى وإن لم يكن لهم أي اهتمام أو معرفة بالمادة التي تقدمها الكلية.. مع أن الممرضة لو دخلت كلية الطب والميكانيكي لو دخل كلية الهندسة والجندي لو دخل كلية الشرطة لأمكن – بفضل ما لديهم من خبرة أن تختصر سنوات الدراسة إلى النصف.. فضلاً عن القضاء على التفارق الطبقي وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص.

إن الإسلام لا يعرف مجردًا والعمل منفصلاً. إنه يستعيذ من " علم لا ينفع ". و "علم على أطراف اللسان"، كما أنه يستعيذ من عمل لا يستهدى بنور العلم. وكثيرًا ما أثر كبار الفقهاء والعلماء أن يحترفوا حرفة يدوية أسوة بالأنبياء داوود، وسليمان والرسول العظيم وصحابته الذين لم تمنعهم مراكزهم السامية من الاحتراف.

وقد انتهت آخر الأبحاث إلى ما انتهى إليه الإسلام من قبل ووضعت النظم التي تفتح الدراسات المسائية للعمال للوصول إلى أعلى المستويات، كما أقيمت مراكز الأبحاث والكليات في المصانع الكبرى بحيث يجتمع العلم والعمل، وفي حالات أخرى تقسم مده الدراسة بحيث يؤدي نصف الوقت في الفصول والنصف الثاني في المصانع أو الحقول أو المكاتب. أو تخصص السنة الأخيرة للتمرين العملي وما إلى هذا كله مما يحقق الوئام الاجتماعي والتكامل العلمي/العملي.. والتكافؤ في الفرص.

إن نظام التعليم الحالي المطبق في معظم الدول النامية والذي يفصل ما بين العلم والعمل قد أفسد العمل، وأفسد المجتمع ولا بد من وضع حد لهذه الجريمة التي ترتكب باسم التعليم وذلك بأن يكون محور التعليم هو الجمع بين العلم والعمل بمختلف الوسائل.

كما أحيا العصر الحديث نتيجة لتراكم المعارف وتواليها المبدأ الإسلامي القديم عن التعلم " من المهد إلى اللحد " فالتعلم الآن عملية مستمرة متجددة لا تنتهي بنهاية سنوات الدراسة وكلنها تستمر " من المهد إلى اللحد "، أو كما كان يقول أحمد بن حنبل " مع المحبرة إلى المقبرة ". ويفترض أن توجد القنوات الثقافية التي تكفل هذا التعليم المستمر تبعًا لمختلف المستويات الثقافية، وأن تكون حرة دون قيود وتفتح أبوابها لكل راغب.

15- الحركة العمالية والنقابية:

هذه صفحة كانت مجهولة من الدعوات الإسلامية، وعندما أعلناها وأثبتنا العلاقة الوثيقة بين الدعوة الإسلامية والحركة النقابية تعرضنا لهجوم منشأة العزوف النفسي المتأصل لدى قادة الدعوات الإسلامية لما سبق إلى أذهانهم من اقترانها بالفكر الشيوعي وأثارتها للاضطرابات. ونسوا أن الإسلام دعا إليها قبل الشيوعية بأكثر من ألف عام عندما جعل فيصل العلاقات ما بين الناس العدل – وعندما كان جمهوره من المستضعفين وعندما رفع الرسول عاليًا اليد المجعدة من العمل وقال " هذه يد يحبها الله ورسوله.. ".

ولما كان معظم قادة الدعوات الإسلامية يجهلون التعقيد الاجتماعي الذي دخل علاقات العمل مع دخل المصنع الآلي الرأسمالي وتقطب معسكر العمل ما بين رأسماليين وعمال، فإنهم جهلوا الأسلوب الوحيد الذي كان على العمال أن يعملوا به، وهو يعد أسلوب جماعي يتفق مع تفضيل الإسلام للعمل الجماعي. ذلك الأسلوب أن ينتظموا في نقابة تمثلهم جميعًا، وتتقدم هذه النقابة إلى الرأسماليين عارضة مطالبها العدالة – ولأبد أن تكون عادلة لأنها إنما تستهدف أن يحقق الأجر الحياة الإنسانية للعمال وأن ينهالوا من الربح الذي يحصل عليه الرأسمالي بعرفهم وعملهم النصيب الذي يحقق هذا الهدف. فإذا رفض أصحاب الأعمال لاذوا بالإضراب ووضعوا أصحاب الأعمال في مأزق لأنهم رغم كل شيء يحتاجون إلى العمال. ومن ثم فإنهم يتنازلون عن كبريائهم واستعلائهم ويجلسون مع العمال على مائدة " المفاوضة الجماعية " التي يغلب أن تصل إلى حل وسط لأن العمال يعلمون أنهم إذا اشتطوا فقد يتملك العناد الرأسماليين، بحيث يبحثون عن حلول حتى ولو كانت مكلفة..

وهذا الأسلوب يمثل أفضل صور التعاون على الخير فهو عمل جماعي لا يستهدف فرد دون آخر والسلاح الذي يهدد به سلاح سلبي – وهو الامتناع عن العمل- وهو بالإضافة إلى أنه حق لهم – وإلا لأصبح العمل سخرة – فإنه الأسلوب الوحيد أمامهم وليس هناك بديل آخر حتى لو كرهوا.. وإذا تسبب هذا في تعطيل مصالح الناس فالبادئ أظلم. والبادي هم الرأسماليون الذين رفضوا مطلب العدالة.

والعمال بعد، هم أبطال العمل وجنوده وجيشه الجرار الذي يعمل في الظلام ويسير عجلة الإنتاج، وييسر للناس الغذاء والكساء والسكن والانتقال وكل ما في الحياة، فهم جديرون بالشكر والعرفان..

ولكن قادة الدعوات الإسلامية لما جهلوا هذا فإنهم لم يتصورا طريقًا لتحسين الحال أو نيل المطالب إلا الطريق الفردي، فعلى كل واحد أن يعمل ما يستطيع وسينال ما تسمح به قواه وملكاته وهو أسلوب ساذج فردي لا يمكن أن ينهض بالملايين من العمال فضلاً عن أنه سباق القوة الذي يسقط فيه الضعف والضعيف هو العمال. وفي المنطلق الرأسمالي فإن الضعيف لا يستحق رحمة ولكن في المنطق الإسلامي فإن الضعيف أمير الركب. وكان الأسلوب الوحيد للنهضة بالعمال ككل هو العمل الجماعي الذي تجمعت فيه كل فضائل الإسلام من عمل تقوم به الجماعة وتستهدف به العدالة وتستلك لذلك سبلاً دفاعية وليست هجومية وتتم تسويته بمفاوضة جماعية على المائدة، وليست بحرب في ميدان قتال، فهي طريقة حضارية وإسلامية لأنها نمط من الشورى.

وفي رسالتنا " الحركة النقابية حركة إنسانية " أثبتنا أن الحركة النقابية تأتي بعد الأديان مباشرة، وقبل الديمقراطية والاشتراكية وإنها حققت للعمال ما طمحت إليه وعجزت عنه الاشتراكية والديمقراطية على سواء فهي حركة إنسانية مجيدة.

وقد كانت هذه الحركة هي أول ما لمس مثاليات الشباب فنيًا، ولهذا أسهمنا فيها بعمل استغرق وقتًا طويلاً واكتسب طابع الإضافة المنشئة، بما في ذلك تكوين" الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل " في جنيف سنة 1981.

إن دعوة الأحياء الإسلامي تقدر الحركة العمالية والنقابية، وتؤمن بدورها الإنساني العظيم وتشجعها بما ينفي عنها ما يتسلل إليها من خبث، ولكنها لا تلزم الحركة النقابية الإيمان بها. لأن الحركة النقابية تحشد العمال جميعًا على اختلاف مستوياتهم وإفهامهم – وهذه طبيعة تختلف عن طبيعة دعوة الإحياء الإسلامي التي تتطلب الإيمان الطوعي من الأفراد بها فردًا فـردًا.

16- الديمقراطية:

كان خيار أوروبا السياسي دائمًا هو ما بين الديكتاتورية والديمقراطية، ولا جدال أنه في مثل هذه الحالة فإن الديمقراطية أفضل من الديكتاتورية. ويتعين الأخذ بها. ولكن الحقيقة أن خيار البشرية لم يحصر ما بين الديكتاتورية والديمقراطية. لأن هناك نمطًا ثالثًا من الحكم لم تستطع أوروبا بلوغه ذلك هو الحكم بالقانون، ولم تستطع أوروبا بلوغه لأن القانون الذي يصلح أن يكون حكمًا لا بد وأن يكون موضوعيًا يأخذ صفه القاضي المحايد. وقد عجزت أوروبا عن أن تبدع مثل هذا القانون وتجربتها في الأنماط الثلاثة الأشهر في القوانين، أعني القانون الروماني، وقانون نابليون، والقانون السوفيتي يثبت أن القانون في هذه التجارب الثلاثة لم يكن قاضيًا نزيهًا ولكن محاميًا عن مصلحة بعينها. كانت هي روما في العصر الروماني، والبرجوازية في قانون نابليون والحزب في القانون السوفيتي، ولهذا لم تستطع أوروبا أن تنهض بالقانون من مستوى المحامي إلى مستوى القاضي. وبالتالي أن يكون حكمًا بين الناس.

على أن هذه قضية أخرى، وإنما أشرنا إليها لكي يعرف الناس أن الديمقراطية ليست وثنًا يعبد ولا هي ثوبًا all size يلبس. وإن الأمر أعقد من ذلك وهناك عوامل عديدة يجب أن تلحظ في قضية الديمقراطية منها.

1- أن الديمقراطية سواء نشأت في أثينا على مستوى دولة المدينة، أو في بريطانيا بحكم ظروفها السياسية الخاصة ثم انتقلت مع المهاجرين البريطانيين إلى الولايات المتحدة، وسواء تأثرت بها الدول الإسكندنافية التي يجد إلهامها في بريطانيا. نقول إن الديمقراطية لم تثبت قدمها إلا في هذه الدول. بحكم ظروفها. أما في قضية العالم فلم تنجح الديمقراطية في تحقيق الاستقرار، والسلام في المجتمع..

2- أن هناك فرقًا بين الحرية والديمقراطية. ويغلب أن تبطش الديمقراطية بالحرية حتى ضد حرية الفكر، بحيث تحكم المحكمة الأثينية على سقراط بالموت، وتحكم المحاكم الديمقراطية الأخرى في بريطانيا والولايات المتحدة على حرية الفكر التي ونجد مثلاً صارخًا لها في محاكمة المفكر الفرنسي المسلم جارودي بمقتضى قانون يحرم على أي كاتب أن يمس قضية " المحرقة اليهودية ".

والديمقراطية عمليًا – هي حكم الأغلبية التي لا تجد مانعًا من كبت الأقليات، وتاريخها حافل بذلك. فالديمقراطية لا تغني الحرية، بل يمكن أن تكون – وكانت بالفعل مرارًا وتكرارًا ضد الحرية.

3- أن الديمقراطية تقوم على نظام الأحزاب، والانتخاب على أساس الدوائر الجغرافية، وقد أظهرت التجربة قصور هذين النظامين، وتعرضهما للاختراق من قبل ذوي المصالح أو " اللوبي " التي تحكم نتيجة الانتخابات. ورأينا صورة مدوية له في قدرة اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة على تسخير مصالح هذه الدولة لخدمة السياسات الإسرائيلية ضد المصالح الأمريكية نفسها، وبصفة عامة فيكاد يحكم النظام الانتخابي قانون جريشام عن أن " العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة" فالمشرح المنافق يطرد المرشح الأمين، ولا بد من التوصل إلى بديل عن نظام الأحزاب والانتخاب كما هما مطبقان [ولدينا هذا البديل].

4- أن الديمقراطية في الوقت الذي قد تكبح حرية الفكر فإنها تفسح المجال للرأسمالية ورجال الأعمال لاستثمار أموالهم بما يحقق لهم الربح وتحول دون تدخل الدولة لتطبيق العدالة أو تحقيق التوازن بحجة أن أي تدخل من هذا بآليات السوق. وكأن الشعوب قد خلقت لخدمة آليات السوق ولم تخلق آليات السوق لتكون في خدمة الشعوب، ونتيجة لهذا القصور ظهرت الدعوات الاشتراكية والفاشية التي ضلت هي الأخرى الطريق لأنها اشترت العدالة وضحت بالحرية..

هذه بعض الملاحظات التي يمكن لدعوة الإحياء الإسلامي أن تقدمها للذين يعبدون الديمقراطية ويدعون لتطبيقها على كل دول العالم كما لو كانت شفاء من كل داء، وأن دعوة الإحياء الإسلامي لديها البديل الأفضل الذي عبر عنه في بعض رسائلها مثل " حكم القانون رؤية للحكم بالقرآن " أو البرنامج الإسلامي " إلخ..

وحتى يتم هذا فإن الديمقراطية على عجزها وبجرها حسناتها وسوءاتها أفضل من غيرها، ويتعين الأخذ به في المرحلة الانتقالية.

17 – العدل:

في مناسبات عديدة أثبتنا أن العدل هو " بصمة " الإسلام إذا كان للأديان بصمة. ومع هذا فإنه لم يكن مهملاً كما هو في الدول الإسلامية، وفي فكر الفقهاء أيضًا، ولا بد من إصلاح هذا بجعل العدل هو الفيصل في العلاقات جميعًا ما بين الحاكم والمحكوم.. الرأسمالي والعامل، الرجل والمرأة، وما تمثله هذه العلاقات، أي مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع، وأي حكم يجافي العدالة لا بد أن يرفض.. ويتعين أن يحل محله نظام يحقق العدل للجماهير العاملة، والعدل هنا هو أن تكون الأجور وظروف العمل إلخ.. كافية ليحيا العامل حياة كريمة يتمتع فيها بحظ من مباهج الحياة، ويأمن فيها من المرض والبطالة إلخ.. إن هذا المطلب هو من صميم الإسلام، وهو تطبيق لأول الأوليات في الشريعة. إن قضية الفلاحين وقضية العمال والمستعبدين في الأرض هي قضية إسلامية بالدرجة الأولى فلإنصاف هؤلاء أنزل الله تعالى الأديان. وميزها عن النظم الطاغية والمستغلة. ولا بد للفكر الإسلامي أن يتنبه لهذه النقطة وأن يخلص من سيطرة الفكر الفردي البرجوازي عليه.

ودعوة الأحياء تستهدف العدل لا في المجال الاقتصادي فحسب ولكن في المجال السياسي أيضًا بحيث تحسم شأفة الاستبداد أو التحكم.

18- العولمة:

أصبحت العولمة أكبر ظواهر الفترة المعاصرة، وقد دبج أنصارها عقود المديح فيها ورأوا أنها هي التي ستنقذ العالم من أوجاعه. وأنها بمعاييرها تؤدي إلى تطبيق حقوق الإنسان. الديمقراطية وإشاعة الحريات إلخ.. والحقيقة أن العولمة هي آخر " صيحة " أو مدى وصل إليه النظام الرأسمالي. وقد كان الفصل الأول لتغلغله هو الغزو العسكري الذي يسلم موارد المستعمرات للرأسماليين الأوروبيين. ثم تضمن الفصل الثاني نوعًا من الشراكة في إقامة المصانع والمؤسسات التجارية ما بين الاقتصاديين في المستعمرات والاقتصاديين في الدولة الأوروبية والفصل الثالث والمعاصر هو العولمة التي جندت ثلاث فيالق لا يمكن لأي دولة أن تقف أمامها. والفيلق الأول: اختراق البورصات بعد أن أصبح الاقتصاد " ماليًا " يقوم على العملات والبورصات والانتقال المفتوح لرؤوس الأموال إما بصفة قروض أو استثمار أو أسهم وسندات، وبهذه الطريقة يصبح الاقتصاد في يد أصحاب رؤوس الأموال الأوروبية/ الأمريكية ويمكن لهم أن يكرروا ما فعلوه مع " النمور الآسيوية " في ماليزيا بمختلف الطرق والوسائل التي تسمح بها نظم البورصات.

والفيلق الثاني: غزو السلع والمنتجات لأسواق العالم بعد أن توصلت اتفاقية الجات إلى أن تكون الأسواق مفتوحة، ومنعت الدول من فرض رسوم جمركية على الواردات إليها. فأصبحت الأسواق مفتوحة. فأصبحت الأسواق القومية فريسة سهلة أمام السلع الأجنبية لأنها لا يمكن أن تصل إلى مستوى جودتها. فضلاً عن أن هناك من الألاعيب ما يمكن لأصحابها التوصل إلى قهر السلعة الوطنية، كأسلوب الأغراق، وذلك بتخفيض السلعة الأجنبية إلى ما دون التكلفة، بحيث يفلس منتجو السلع القومية وبعد أن يحدث هذا ترفع الشركات الأجنبية من سلعتها بعد أن انفردت بالسوق.. وأمثال هذه الألاعيب عديدة..

والفيلق الثالث: الإعلام طريق الأقمار الصناعية والقنوات التليفزيونية التي تقوم بالغزو الفكري والنفسي لفلسفة العولمة بحيث يمكن في النهاية أن يأكل العالم كله الهامبورجر ويشرب الكوكاكولا ويلبس " الجينز " ويشاهد الأفلام الأمريكية.

ولا جدال في قوة هذه الهجمة الأخيرة من هجمات الرأسمالية، ولكن المعركة قد لا تكون بالسهولة التي يتصورها أنصار العولمة. فتوجيد العالم كله أمل عجزت عنه كل النظم، بل والأديان أيضًا.. والإسلام مثلاً يقر التعددية الدينية ولا يتصور أن تكون البشرية كلها " أمة واحدة " وستقف أمام طوفان العولمة، قوى الدين، واللغة، والتراث والخصائص الخاصة بحيث لا يمكن الاستحواز على الإنسان الأفريقي أو الأسيوي – وبوجه خاص الإنسان المسلم الذي يقدم له الإسلام أكبر حصانة من الإذابة. كما لن تقف الحكومات مسلوبة الإرادة طويلاً ولا بد أن ضغط شعوبها سيحملها على العمل. وقد شاهدت " سياتل " في الولايات المتحدة ودافوس في سويسرا مظاهرات شعبية حاشدة ضمت عشرات الألوف التي اجتمعت احتجاجًا على السياسة التجارية التي تنهجها الدول الكبرى والشركات العملاق متعددة الجنسيات ويمكن لهذا الاحتجاج أن يأخذ شكلاً أكثر تنظيمًا ومنهجية.

وكان من الممكن لولا الطمع الشعبي للرأسماليين، والتحالف المدنس ما بين رجال المال بأموالهم ورجال الحكم بسلاحهم.. أن تأخذ العولمة طابعًا آخر يمثل الحوار بين الحضارات والتعارف بين الشعوب والتلاقح بين الثقافات والقضاء على العنصرية، وهي كلها أهداف نبيلة ومفيدة للبشرية جمعاء..

وهذا هو ما تدعو إليه دعوة الإحياء الإسلامي وما أمر به الله تعالى عندما قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ..** ﴾.

19- الفساد:

عم الفساد وطم، وظهر في البر والبحر، في الدول المختلفة، في آسيا وأفريقيا وأوروبا، وأمريكا. بحيث أصبح " ظاهر " وليس " حدثًا " وشمل السياسيين في صورة تقاضي معونات للأحزاب وتمويل للمعارك الانتخابية من قبل أصحاب أعمال أو فئات مستفيدة. والتستر وراء الحصانة البرلمانية لأداء صفقات مخالفة للقوانين وأدت الفضائح إلى استقالة عدد من كبار السياسيين في ألمانيا، وإنجلترا، وغيرهما.. كم تورط عدد كبير من المواطنين في تقاضي عمولات أو رشاوى للحصول على موافقات أو تسهيلات لإجراء صفقات بحيث اعتبرت العمولات والرشاوى في بعض الدول كجزء لا يتجزأ من تكاليف الإنتاج!

وظهر الفساد في الدوائر المالية، وبالذات البنوك ووصل الفساد في بعض الدول المختلفة أن استحوز كبار حكامها لأنفسهم على المعونات والقروض التي تقدم للدولة، أو تحويل مبالغ جسيمة من المالية العامة لسحاباتهم في البنوك الخارجية.

وظهر الفساد في الدوائر المالية ما بين المقرضين ومديري البنك الذي قدموا تسهيلات ائتمانية دون ضمانات ولكن لقاء عمولات، وأخذ المقرضون الأموال وفروا بها!

وظهر الفساد في المجال الصناعي والزراعي بما يمارسه أصحابها من وسائل التحايل بأنواعه لاكتساب الرواج ولم ينج من ذلك حتى صناعة الأدوية..

وظهر الفساد لدى المهنيين من محامين، ومهندسين ومحاسبين وخبراء إلخ..

باختصار لم ينج قطاع من قطاعات المجتمع من وباء الفساد.. كما لم تفلح النظم الاشتراكية إلا في التستر على صور الفساد التي لم تعرف إلا بعد سقوط هذه النظم.

ويدل شيوع هذه الظاهرة وانتشارها على مستوى العالم أن القوانين والنظم واللوائح رغم دقتها وصرامته لم تستطيع أن تقف أمام ذكاء المحتالين الذي يتوصلون إلى اختراقها وتجاوزها وتحقيق أهدافهم، كما تدل على أن المستوى الأخلاقي. وفكرة الواجب ليست من القوة بحيث تكبح جماح النفس الإنسانية أو تقحم مجموعات كبيرة من الناس عن الاستسلام لإغراء الثراء العاجل السريع، وإن لم ينف هذا أن الكثيرين لم ينزلقوا إلى هذه الممارسات.

كما تدل هذه الحقائق على أن أطراح المجتمع الأوروبي للدين، والصورة المشوهة للدين التي يعرضها الفقه التقليدي قد أسهمت في توهين المقوم الديني وإضعاف أثره في كبح جماح النفس البشرية ومقاومة الضعف أمام أغراء الثراء السريع.. رغم أن الدين هو الأمل الوحيد في القضاء على ظاهرة الفساد. فبقدر ما يتعمق الوعي الديني في النفس بقدر ما تكون قدرة الإنسان على مقاومة الإغراء، وليس هناك من قوة أخرى تعدل الدين في هذا المجال فإيمان المؤمن بأن الله يرى، وعمق معنى الحرام والحلال وما وصمت به الأديان هذه الصور من الفساد من أنها استسلام للشيطان وبئس المصير.. هذه المؤثرات الأدبية، النفسية العميقة هي وحدها التي يمكن أن تحول دون استشراء الفساد، دون أن ينفي هذا ضرورة العمل على إغلاق المنافذ إليه.

20- النخبة:

من الظواهر البارزة في معظم المجتمعات الإسلامية وجود نخبة تختلف في مذاهبها واتجاهاتها عما تذهب إليه شعوبها وجماهيرها، فالشعوب في واد، وهذه النخبة في واد آخر ومثل هذا الشذوذ لا يوجد في المجتمعات الأخرى، وهذه الظاهرة الشاذة تعود إلى أسباب عديدة أبرزها أن الثقافة التي ألمت بها هذه النخبة ثقافة أوروبية خالصة، لا تمت بصلة إلى الإسلام، أو إلى ثقافة بلادها، وقد تلقى الكثير من البارزين من هذه النخبة دراساتهم في جامعات أوروبية أو أمريكية أو تبشيرية (كالجامعة الأمريكية في مصر وبيروت وجامعة فيكتوريا بالإسكندرية) ومن هنا فإن عقل هذه النخبة وتفكيرها بعيد كل البعد عن فكر الجماهير الذي يدور حول محور رئيسي هو الإسلام باعتباره الأصل في اللغة، والتشريع والآداب إلخ..

أما الذين لم يقسم لهم مثل هذه الدراسات الأوروبية والأمريكية من النخبة فإن النظم الحاكمة عملت لكسب ولاءهم، وهذا أمر يسير عليها لأن في يدها المال والسياسة والوظائف والصحافة إلخ.. وهي تستطيع أن توظف هذه النخبة في الصحف، وأجهزة الإعلان والجماعات والوزارات والمصالح على اختلافها، كما أنها أيضًا تعمل لاحتوائه في حزبها، وهو الحزب الحاكم، وبهذه الطريقة تكفل لهم النجاح في انتخابات 99.9% وتكسبهم المنزلة الأدبية والسياسية والمادية أيضًا.. بل حتى النخبة الإسلامية التي تدور دراساتها كلها حول الإسلام فإن السلطة لا تعجز عن استحقاقها بحيث يكونون بعد فترة " بطانة السلطان " التي تصدر الفتاوى بشرعية أحكام وقرارات السلطة..

وهذا كله يكاد يكون من الحقائق الدارجة الملموسة التي يعلمها كل الناس بحيث لا ترى حاجة لضرب أمثلة..

نتيجة لهذا فإن الصحافة، والإعلام، ومؤسسات الثقافة الأوروبية أصبحت أجهزة لتدعيم سياسة النظام الحاكم لأن النخبة أصبحت جزءًا منه، فهي في دفاعها عن النظام إنما تدافع في الحقيقة عن نفسها وعن مصالحها المكتسبة، كما أنها لا بد وأن تدفع أي نقد يوجه للسلطات لأنه يمسها بعد أن ورطتها النظم الحاكمة في سياساتها وأشركتها في قاذوراتها وجعلتها تتستر، بل تدافع عنها.

بالإضافة إلى هذا كله، فقد كان لدى هذه النخبة عامل آخر يجعلهم يعزفون عن الاتجاه الإسلامي. ذلك أن هذا الاتجاه إنما تمثله مؤسسة دينية متقوقعة، أو هيئات إسلامية بعضهم شاردة ومهووسة لا يأتي منها إلا أنواع العذاب والوعيد، والتنديد بالفنون والآداب والانغلاق، والجهالة والتعصب وضيق الأفق.. ومن ثم فقد عزفت النخبة من الالتحاق بهذا الركب العقيم. ورأت في دعوة للتخلف.

على أن النخبة لا تعذر تمامًا في الموقف الذي اتخذته لأنها كانت تستطيع أن تتبين زيف وانحراف هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم دعاة وكان بإمكان هذه النخبة. أن تتوصل إلى ما في الإسلام من روعه وأصالة وأن تعلم أن موقفها السلبي فرار من أعظم قرار فكري يتعين على المثقف اتخاذه وأنها بذلك تفسح المجال لهؤلاء الدعاة.. ونترك لهم الميدان يصولون فيه دون أن يجدوا معقبًا أو مصححًا.

فالنخبة في جميع الحالات وباستثناءات قليلة مدانة، مدانة في استسلامها للسلطات وجعلها من نفسها " صوت سيده " الذي يردد دعـاواه، وكـان من حق الثقافة عليها أن تسمو فوق هذا المستوى، ثم هي مدانة بسلبيتها تجاه الدعوات المنحرفة أو الضـالة أو المختلفة.

والإسلام يعد مفتوح، والتفكير فيه حر طليق ولا يستطيع أحد احتكاره أو منع الآخرين منه، وليس هناك " كنيسة " إسلامية تملك التحليل والتحريم، والقرآن واضح وصريح ولو تدبرته النخبة – والتدبير فيه واجب عليها باعتبارها نخبة مثقفة، وباعتبارها نخبة مسلمة لتفتحت أمامها آفاق روعة الإسلام وأصالة المبادئ التي يقررها ولوجدت أن كل ما توصلت إليه دراستها هزيل أمام ما يمكن أن تنتهي إليه بتدبر القرآن..

وعلى كل حال فإن دعوة الإحياء الإسلامي بانفتاحها ورفضها الدعاوى التراثية والأحكام الفقهية التي لا تستند على أصل صريح من القرآن أو تتجاوب مع القرآن وبعد أن أثبتت أن الأحكام التي وضعها القرآن منذ خمسة عشر قرنًا تفوق ما وضعته الأمم المتحدة من مواثيق واتفاقيات، نقول إن دعوة الإحياء لم تدع للنخبة عذرًا لأنها ليست فحسب قدمت ما يتفق مع مستوياتهم الثقافية، بل إنها تفسح المجال لمشاركتهم وتقديمهم إضافتهم.

21- التنمية:

قلنا في ميثاق دعوة الإحياء الإسلامية أن التنمية قضية حضارية بالدرجة الأولى، وما دامت هي حضارية فهي في النهاية إسلامية لأن الإسلام هو جماع حضارة العرب والمسلمين. وأنها لن تنجح إلا إذا اعتبرت الصورة العصرية " للجهاد الذي تعبأ الأمة كلها للانتصار في هذه المعركة التي يكون الإيمان فيها هو القوة الدافعة التي تحول المشروعات والخطط إلى منجزات عملية.. وأي قوة أخرى – بما في ذلك المال والتقنية – لا يمكن أن تماثله، فضلاً عن أن المال والتقنية ليسا ميسرين، ولو تيسرا لما كانت الحاجة إلى التنمية ملحة، فإنما تهدف التنمية – فيما تهدف – إلى تيسيرها.

وقلنا إن الطريقة التي تضعها الرأسمالية وصندوق النقد الدولي والمعونات والقروض إلخ.. لا تثمر تنمية حقيقية، وإذا أثمرت تنمية فللرأسمالية والدول المانحة

المعونة والمقدمة للقروض. وهذه الخطط هي مصيدة لإيقاع الدول في شبكة الديون والفوائد والتبعية.

فلا بد للتنمية الناجحة أن تستلهم طرقًا غير تقليدية، تأخذ من الإسلام عنصر " الإيمان " وتأخذ من عمر بن الخطاب كالحاكم الذي يقود التنمية مبدأ " الأسوة " وتدرس تجربة غاندي واليابان والصين وحتى لينين..

وقلنا إن هذه التنمية لا بد أن تستهدف إثراء الشعب كله وليس القلة المميزة ولا بد أن تشترك الجماهير مشاركة فعالة من وضع الخطة، حتى تطبيقها وتقييمها ومتابعتها. ولا بد أن تبدأ من محطة الكفاية التي لا تتحقق إلا بما تنجزه التنمية من أهداف وترفع مستوى المعيشة إلى مستوى الكفاية.

وأي تنمية يضع خطوطها صندوق النقد الدولي وتقوم على قروض ويشرف عليها خبراء وموظفون ستؤدي إلى مزيد من التخلف والتخبط في إسار التبعية. وستجعل الفقراء أشد فقرًا والأغنياء أكثر غنى.

22- النفاق الاجتماعي:

أصبح النفاق الاجتماعي هو القاعدة التي تحكم العلاقات الاجتماعية على مستوى الأسرة، وعلى مستوى الدولة، وهناك استثناءات بالطبع، ولكنه الاستثناء الذي يثبت القاعدة لا ينفيها، والحكم هو للقاعدة، ولو قارنا المجتمع العربي/ الإسلامي في هذه القضية بالمجتمع الأوروبي/ الأمريكي لوجدنا أن النفاق استثناء.. أما القاعدة فهي الصراحة والصدق والمجابهة.

وهذه الحقيقة هي من أكبر أسباب القلق والتخبط الذي يعانيه المجتمع المصري، كما أنها من أكبر أسباب تخلف الأمم، لأن الأمم إنما تنهض بالشجاعة، والإقدام والقيام بالمسئوليات والالتزامات واستخدام العقل وتطبيق أحكامه.

ويبدأ الفصل الأول من هذه المأساة مع الأسرة. فالأم العربية/ الإسلامية لا تفرق بين الحب والدلال، والأول حسن والثاني سيئ، ومن حق الطفل على أمه أن تحبه وتشعره بهذا الحب كما أن من واجب الأم على الطفل أن تعلمه أن هناك أصولاً وقواعد لا بد أن يتقبلها ويلتزمها في الأكل، والشرب، واللبس والنوم إلخ.. لأن صحته ومصلحته تتطلب ذلك، ويمكن للأم أن تحمل الطفل على الالتزام بها برفض الاستسلام لبكائه وصراخه. إن الأم الأوروبية بعد أن تعلم في هدوء، وبصبر طفله هذه القواعد في الأكل واللبس والنوم فإنها لا تأبه لبكائه عند إلزامه بها وشيئًا فشيئًا يفهم الطفل أن عليه أن ينصاع ويلتزم ويوقف البكاء أما الأم العربية/ المسلمة فما أن يبكي طفلها حتى تهرع إليه وتقبل التخلي عن هذه القواعد (إذا افترضنا إنها علمتها له) وتكون النتيجة أن يصر الطفل على مطالبه حتى يستجاب له، وفي مستقبل حياته يتصور أن من حقه أن يستجيب له الآخرون.

ولهذا التدليل أثر لا يقل خطورة، ذلك أن الأم تخشى على طفلها من أقل المخاطر، وتحاول أن تجنبه القيام بالكثير من الواجبات أو التصرف مع مشكلاته، وبهذا تجرده من روح الإقدام والمخاطرة وتحمل المسئولية وتربيه تربية إتكالية يعتمد فيها على الآخرين ويفر من الالتزامات والواجبات.

ومقابل تدليل الأم يقف الأب صارمًا، ولكن هذه الصرامة ليست في إلزام الطفل بالقيام بالقواعد، ولكن لكسب طاعة الطفل.

ويتمزق الطفل ما بين تدليل الأم، وصرامة الأب وفي الوقت نفسه فإن الأم والأب قلما يتحدثان معه حديثًا مفيدًا أو يردان على أسئلته، أو يزودانه بمعرفة.

فإذا دخل المدرسة وجد نظامًا للتلقين وحشو الفكر والحفظ ووجد معلمًا مهمومًا بائسًا ينوء بمطالب أسرته التي لا يفي بها مرتبه – كما قد يجد – كما حدث في الفترات الأخيرة – في الدروس الخصوصية ما يفك أزمته، ويحقق له اليسر والرخاء،

وفي جميع الحالات لا يجد الطفل في المادة التعليمية ما يغذي فكره ولا يجد في المدرس الأسوة الحسنة التي يتبعها.

وفي مرحلة المراهقة الخطرة لا يجد من يرشده، لأن الحديث عن هذا الجانب " عيب " ويترك ليتخبط في جهالته.

وإذا قدر له أن يتم دراسته في الجامعة فسيجد أن الجامعة لا تفضل المدرسة الابتدائية أو الثانوية وسيجد مدرجات تزدحم بمئات الطلبة وأستاذ يلقي محاضراته، ويمضي لطيته، والعملية التعليمية كلها ورق في ورق وسيجد الفساد في المدرسة وقد تضخم في الجامعة فإذا نال شهادته. فسيجد البطالة وسيكون عليه أن ينتظر سنوات طوال، وأن يجري وراء " الواسطة " حتى يصل في النهاية إلى وظيفة.

خلال هذا " المشوار " الطويل لا يجد توجيهًا حكيمًا أو قيمًا رشيدة أو أسوة حسنة. أو تدريبًا على إعمال العقل ومجابهة المشكلات.

وسيجد أن المناخ الذي يحكم المجتمع هو مناخ العشوائية والكبت والقيود والسدود، والمحرمات وتركيز السلطات والزيوف والإدعاء وتكون النهاية هي النفاق الاجتماعي، فهو الطريقة الوحيدة للوصول، فليس هو مؤهلاً بحكم تربيته الإتكالية على الكفاح والنضال، ولا المناخ نفسه يسمح بهذا الكفاح، وعليه أن يسير مع التيار وينافق، ويمدح ويصفق ويهتف حتى يفتح ثغرة في السور المسدود ينفذ منها إلى الوظيفة والمنصب، وعليه أن يستمر في النفاق والمداهنة والمداجاة حتى يبقى ويتقدم.

يكتب الصحفي وهو يعلم أن ما يكتبه زيف وباطل ويخطب الخطيب وهو يعلم أن ما يقوله كذب وإدعاء لأن الصحف لا تنشر والحديث لا يذاع إلا بهذه الطريقة " ويتهرب الموظف من مسئولياته أو يحملها على آخر لأنه لم يتعلم حمل المسئولية وأمانة الالتزام.

الصراحة، والعقلانية والشجاعة لا توجد في عالم تنعدم فيه الحرية ويسيطر الاستبداد والطغيان وإنما يوجد الانتهازية والوصولية والنفاق..

إن عملاً بحجم وطبيعة الزلزال أو البركان هو وحده الذي يمكن أن يخلصنا من هذه الآفة.. التي تسمم المجتمع والعلاقات، وتؤخر التقدم والنهوض، ودعوة الإحياء الإسلامي هي أول صيحة.. للخلاص..

23- تلاقي الأديان:

من الظواهر التي لفتت الانتباه وأثارت الجدل تلك المحاولات التي تولتها بعض الهيئات في المجتمع الأوروبي للتقريب ما بين الأديان بعضها بعضًا وأطلق عليها حوار الأديان. ومعظم الذين قاموا بهذه المحاولات من المفكرين ورجال المسيحية الأوروبية – كاثوليكية وبروتستنتية.

ونحن نؤمن أن الدين واحد في الأصل لأن جوهره هو وجود إله يمثل الحكمة والغائية والمثل العليا، خلق هذا الكون وهو يثيب المحسن ويعاقب المسيء في محكمة تقام في الحياة الآخرة تستكمل محاكم الحياة الدنيا بحيث لا يحرم من ثواب العدالة محسن ولا يفلت من عقوبتها مجرم أو مسيء..

بالإضافة، فإن الأديان الكتابية الثلاثة لها أب واحد، هو إبراهيم، وابنان هما أسحق وإسماعيل، ومن إسحاق ظهر موسى وعيسى أي اليهودية والمسيحية ومن إسماعيل ظهر محمد أي الإسلام فهذه الأديان عمليًا – وليس مجازيًا – أسرة واحدة والاختلاف ما بينها هو اختلاف في تفاصيل العقيدة والشريعة.

لهذا لا يجد المسلمون في التقارب ما بين الأديان حرجًا أو حساسية. فقد أقر القرآن الكريم التعددية وأمر أن تكون علاقة المسلمين بالآخرين مبنية على القسط والبر مع الذين ﴿ **لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ** ﴾.

ولما كان الاختلاف إنما هو في تفاصيل العقيدة أو الشريعة، فيفترض في أي تلاق للأديان أن يبتعد عن هذه النقط ولا يجوز أن يخطر في بال المسيحي أن يستهدف من هذا التقارب كسب المسلمين، كما أنه لا يجوز للمسلمين أن يستهدفوا منه هداية المسيحيين فلو وجدت أي إثارة من مثل هذه الفكرة فستتحول الساحة إلى مبارزة، وليس إلى معانقة. وبعد هذا كله فالتعددية مطلوبة. والاختلاف نفسه ليس سيئًا دائمًا. وقد أُمر الرسول أن يقول: ﴿ **لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ و ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ وقال الله تعالى: ﴿ **لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾.

لهذا يجب أن تتركز موضوعات التلاقي حول روح الأديان والأهداف التي قامت لها والتي لا خلاف عليها بين الأديان جميعًا.. فمثلاً.

1- كل الأديان تهدف لتحقيق الكرامة الإنسانية ومقاومة ما يمس ومن باب أولى – ما يهدر هذه الكرامة – ومن أبرز ذلك تلك الصور المقيتة للتعذيب التي شاعت في ممارسات أجهزة الأمن في الدول المختلفة.

2- كل الأديان تدعو لصيانة الحياة والحفاظ عليها، وترى سفك الدماء أسوأ الجرائم.. وفي الحروب تجرى الدماء أنهارًا ويقتل مئات الألوف، بل والملايين فضلاً عما تتركه من مشوهين – ومعوقين دون أن يكون لهذه الحروب سبب نبيل يبرر التضحية، وإنما هي حروب سياسية يأمر بها الحكام لما ورثوه من مقدسات مدعاة أو يدفع إليها طمع الرأسماليين والتجار.. ومن ثم فالذين يموتون في هذه الحروب يكونون شهداء الطموح السياسي والتوسع الرأسمالي.

فمقاومة الحروب وتسوية الخلافات بالتفاوض والتحكيم يجب أن يكون من أهداف رجال الدين في العالم أجمع، وكان يجب أن يكونوا هم – وليس الرئيس ولسن عام 1919 – الذين يضعون أسس عصبة الأمم، ومحكمة العدل الدولية. فلئن فاتهم هذا فإن الساحة مفتوحة.. والحاجة متزايدة.

3- ولا يمكن مقاومة الحروب إلا بمقاومة صناعة التسليح, وصناعة التسليح وشقيقتها التي لا تقل عنها شرًا وإساءة – صناعة المخدرات والرقي الأبيض والجريمة المنظمة. هما أكبر المؤسسات في العصر الحديث، ويجب على رجال الدين أن يدرسوا ويقدموا طرق التحول من صناعات السلاح والتدمير إلى صناعات السلام والتعمير. والطرق والأسباب التي تؤدي لازدهار المخدرات ومختلف صور الفساد ووضع الحلول لها..

4- ارتبطت الأديان من قيامها برعاية الفئات المعوقة أو المريضة أو المشوهة إلخ.. وقد تضخمت هذه الفئات بما تحوله إليها الحروب من معوقين ومشوهين، ولا تزال هذه الفئات في عدد كبير من الدول محرومين من الرعاية وسد هذا النقص مما يدخل في صميم الفكر الديني وهو يصل الدين المعاصر بجذوره القديمة..

***

وأتصور أن الحاجة إلي " جبهة " ثالثة تقف ما بين جبهتي رجال السياسة ورجال المال اللذين يستبدان بالأمر.. أصبحت ملحة حتى يمكن سد تلك الفجوة اللا إنسانية الفاغرة فاها في المجتمع الحديث. بحيث توجد مؤسسة دولية لرجال الدين – يجتمع ممثلوها كل عام أو كل عامين ويتصدون للمهام التي ضربنا المثل لها آنفًا وتصدر

اتفاقيــات دولية كاتفاقيــات منظمة الأمم المتحــدة. وتكــون الرأسة فيها دورية ولكل فريق حقوق متساوية مع الآخرين..

أما المحاولات الفردية التي لا تتسم بشمول أو دوام أو منهجية، فإنها وإن دلت على نبل أصحابها، فإنها أيضًا تدل على أن الواجب الحقيقي لرجال الدين في العصر الحديث لم يتغلغل في " المؤسسة الدينية " سواء كانت كنائس أو مساجد – بالدرجة الواجبة، وأن من المفروض أن تبذل الجهود للوصول إلى هذه الدرجة.

24- الثورية:

كان للثورة الفرنسية وما اصطحبت به من مذابح أثر عميق ليس فحسب على الفكر السياسي الأوروبي ولكن أيضًا على الممارسات الثورية.. فأعتبر المفكرون أن من طبيعة الثروات أن تكون دموية وأن ترتكب فيها جرائم عديدة وأن هذه الانحرافات " شرعية ثورية " ثم جاء لينين وطبق مبدأ " اغتصاب المغتصبين " و " لا حرية لأعداء الشعب " وبهذا أمكن تسويغ الجرائم المنكرة التي وقع فيها الاتحاد السوفيتي بدءًا من عهد لينين حتى الأيام الأخيرة له ونقل الاتحاد السوفيتي تلك السبة إلى كل التجارب الاشتراكية التي قننت الغصب والقتل والتعذيب وكبت الحريات واعتبرته حقًا " للثورة " وممارسة مشروعة منها.

وحــذت النظم الفاشــية والنازية حــذو النظم الاشــتراكية بحيث تغلغلت ونمت في النفسية الأوروبية فكرة العدوان والاجتراء والجريمة على حساب الشرعية والقانون.

وليس هناك ما هو أكثر إيغالاً في الكذب والزيف والادعاء من فكرة " الشرعية الثورية " ولم تحفظ النظم شيئًا أكثر انتكاسًا عن الحضارة والمدنية مثل هذا.

وقد قال الإسلام قولته، وقدم إضافته في هذا المجال. فوصايا الرسول وأبي بكر وعمر وعلي للجيوش المحاربة تستبعد بصرامة قتل غير المحاربين، وعدم اغتصاب شيء، بل شراءه بثمنه وحماية الأطفال والنساء والراهبات والكنائس. وأقر الإسلام فكرة وجود أربعة أشهر حرم لا يدور فيها قتال، واعتبرت مكة والمدينة مدنًا مقدسة لا يدور فيها قتال، ولا تصاد طيورها ولا يقلع شجرها إلخ.. وعندما فتحت مكة قال الرسول أنها " أحلت ساعة من نهار " وتعد هذه الساعة عادة مقدسة محصنة من القتال كما كانت. وما أعظم الفرق بين دخول الرسول مكة بعد فتحها حانيًا رأسه على قتب بعيره وبين " موكب النصر " الروماني الذي يسير فيه الأسرى مكبلين بالأغلال وتحتشد العربات بالغنائم ويقف " قيصر" في عربته التي تجرها خيول عديدة مزهوًا كما لو كان إلهًا..

وقد كان أعظم فتح حققه الإسلام هو فتح المدينة الذي حدث بالقرآن – كما قالت عائشة – فتحت المدينة بالقرآن " وهذا الفتح العظيم لم يتم بالسيوف والرماح.. ولكن بالكلمة..

ولو أن أوروبا تعرفت على فكرة الإسلام في الأشهر الُحرم – والمدن المقدسة، والتزامات الجيوش فضلاً عما وضعته الآية 9 من سورة الحجرات عن طريق التحكيم في المنازعات المسلحة.. لكان هذا إن لم يكبح جماح هذه الممارسات الوحشية، فعلى الأقل يؤثر على الفكر السياسي الذي كاد أن يجعل من هذه الصور من المنكرات أمرًا مشروعًا ومقررًا بحجة " الشرعية الثورية " " المزعومة ".

ودعوة الإحياء الإسلامي دعوة لاستنكار كل دعاوى " الشرعية الثورية " وتأكيد حرمة وكرامة النفس الإنسانية، وأنه ما من قوة يمكن أن تبيح لنفسها مجاوزة القانون العام للحقوق وأن الثورية الحقة هي – كالجهاد الأعظم – بالإيمان النفسي وبالكلمة الطيبة وليس بالسيف البتر، وهي تعمل لتعريف الغرب بها.

25- معنى الحياة:

كثيرًا ما يخطر للإنسان، عندما يخلص من دوامة مشاغله اليومية ويظفر بلحظة هدوء.. أن يتساءل ما معنى هذه الحياة.. أن يولد الإنسان في مخاض عسير يخلصه من ظلمات ضيق البطن إلى فضاء الدنيا ليتعرض لحضانة طويلة لا تبقى على الحياة فيها إلا حنان الأم حتى يخلص من الحبو على أربع إلى السير على قدمين.. ثم يبدأ طفولة تتفتح فيه ملكاته وطبائعه، ولكن المجتمع يكتبها أو يطبعها بطابعة في المدرسة والمنزل حتى يبلغ الصبا والشباب فيكد ليهتدي إلى العمل الذي يكفل له المعيشة، وتدفع الغريزة الغلابة للزواج لكي يعيد القصة مرة أخرى وأخيرًا يغادر هذه الحياة فيموت ولا يأخذ معه شيئًا.

ما قيمة هذه الحياة.. وهل تستحق المعاناة.. فالآمال التي يكدح الإنسان لتحقيقها ما أن تنال حتى تفقد – بعد فترة – لذتها وتصبح في حكم العادة – وهناك بعد الأمراض، والعداوات، والكوارث التي تلبد صفوها.

لعل الشيء الوحيد في النهاية الذي يبقى الإنسان على قيد الحياة، ويجعله يتمسك بها هي عزيزة البقاء والقوة الحيوية المستكنة في الجسم.

وقد يكون الإنسان من القلة السعيدة التي يتوفر لها المال والبنون والزوجة الصالحة والعمل الموفق ولكن مشكلة السعادة أنها ما أن تستمر حتى تصبح عادة وتفقد طرافتها والطعم الخاص بها. وقد لمس ذلك الأجهزة التي احترفت الترفيه فأخذت تجدد في الأساليب التي تقدمها في دور السينما أو المسارح أو على شاشات التليفزيون أو وكالات السفر، وتفتق الهوايات، حتى أصبح هذا كله كجلد للطبيعة البشرية للتغلب على السأم والملل، واستثارة الغرائز والمشاعر أو أي وسائل جديدة للاستمتاع.

ولكن السعادة والاستمتاع ليستا ما يملأ النفس الإنسانية، وقد تحدث القرآن عن أقوام يتمتعون، ويأكلون كما تأكل الأنعام، من أجل هذا يحس الإنسان الحديث بشيء ما ينقصه، هذا الذي أطلق عليه " الاغتراب " أو " الاكتئاب " وهو إحساس فطن إليه الفلاسفة القدامى، وألصقه ماركس بالمجتمع البرجوازي (كأن الاشتراكية بعيدة عنه) والحقيقة أنه مرض العصر، أو بمعنى أصح مرض الحضارة الأوروبية، وهو الذي يجعل الحياة رغم كأسها المترع من اللذائذ، لا تملأ تمامًا نفس الإنسان الحديث، لأن نفس الإنسان وفطرته تهفو نحو ما هو أفضل من السعادة واللذة. إن هذا الاغتراب نشأ لدى الإنسان الأوروبي نتيجة لأن هذا الإنسان قطع صلاته بالله تعالى، وفضل أن يقف وحيدًا متحديًا يعمل ليقهر قوى الطبيعة وأكسبه هذا الموقف كل أمجاد الحضارة الأوروبية من اكتشاف واختراع ولكن ما قيمة هذا كله إذا كان هذا الإنسان قد خسر نفسه، كما يقول الإنجيل – أو كما يقول القرآن: ﴿ **نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ** ﴾ إن الإنسان الأوروبي يقف وسط أمجاده كما يقف البخيل بين أمواله، يحبها ولكنها لا تحبه ولا تسعده ولا تبث الطمأنينة في نفسه أو تروي عطشه نحو المجهول.

التصوير الذي يقدمه القرآن لله تعالى وحده هو الذي يتجاوب مع الفكر الإنساني المتطلع. الطموح، الذي لا توقفه قوة، ولا تحكمه فكرة وتستبد به الطموحات والشهوات – لأن الله هو القوة الخالقة التي لا تساميها قوة، فالأرض قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه وهو الذي يأمر السماوات والأرض فتجيبانه أتينا طائعين، والذي يسبح له الطير في السماوات والشجر في الأرض والسمك في الماء، والذي جعل كل شيء في الكون يسبح بدءًا من الذرة الصغيرة التي لا ترى، والتي تدور فيها الالكترونات والنيوترانات حتى الكواكب والمجرات العظمى كلها تسبح، لعل هذه " السباحة " هي تسبيحها..

هذا البناء المعماري الهندسي المتكامل، والمنتظم للكون الذي يسير بملايين السنوات الضوئية بدقة الثواني، ولا يخطئ أبدًا وهذه الحياة التي تسري في السماء

والأرض والجبال والإنسان والحيوان. ووجود عالم آخر بعد الموت كل هذا يمثل الغائية والعقلانية والوجود، والعدالة بحيث تنتفي العبثية والعشوائية والعدم والتيه والضياع.

وكأن هذا لا يكفي، فالقرآن يعرض لنا أشعة من نور الله.

الله رمز الجمال بديع السماوات والأرض.

الله أصل القيم الحق – الخير – العدل – الحكمة.

هنا – وهنا وحده – تحس النفس الإنسانية سواء كانت طاغية أو ضالة، وديعة أو حائرة.. بما يملأها، وما يشعرها الطمأنينة والرضا، وما يضبط سرفها وشططها ويحول دون استشرائها وطغيانها ويجعلها تحس أنها وصلت أخيرًا إلى سواء السبيل وشاطئ السلام.

لا اغتراب مع الله. ولا طمأنينة مع سواه.

مع الله لا شقاء وبدون الله لا سعادة.

وهذا الشعور هو ما أحسه الصوفيون العظام وما اعتبروا أن الملوك يحسدونهم عليه.

ويكفي المؤمن أن يستعيد تلك العلاقة المستكنة في أطواء نفسه التي تربطه بالله تعالي منذ أن خلقه بيده ونفث فيه من روحه وأبدع خلقه واعتبره خليفته وسخر له الشمس والقمر والنجوم وجعل له الحياة الدنيا متاعًا وابتلاءً واستبعد المصادفة الشرود أو التطور الأعمى وأحل محلهما العقل والقصد والغائية والأصول والمبادئ التي تجعل للحياة معنى في سرائها وضرائها، وتجعل المؤمن يتمسك بالحياة لأن الله تعالى أرادها له، وبدع الحياة لأن الله تعالى أعاده إليها، وهو راض في الحالين سعيد بأن تعود روحه إلى بارئها مستجيبًا للنداء الإلهي ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾.

إن ما تهدف إليه دعوة الإحياء الإسلامي هو تكوين رأي عام يؤمن بمبادئها. وبقدر ما يكون هذا الرأي العام كبير بقدر ما تكون فرص تقدم الأمة كبيرة، وبقدر ما يتم بسرعة بقدر ما نختصر فترة الانتقال. فإذا آمنت بها. فاعتبر نفسك صاحبًا لها وادع إليها كل من تعرف حتى تشارك مشاركة إيجابية في هذا الهدف النبيل. وإذا كان لك ملاحظات عليها فاتصل بنا ونحن نسعد بكل إضافة.

جمال البنا